

عَلَى فَنَاءِ خَشْيَةِ

النَّزْعَةُ الْعَقْلِيَّةُ



نَفْكَائِرُ الْمُعْتَرِثِ

الطبعة الثانية

الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان

مكتبة

الزعة العقلية في تفكير المعتزلة

النزعة العقلية

في

تفكير المعتزلة

محمود يوسف النور

تأليف

الدكتور على فهمي شيم

الطبعة الثانية

الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان

مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة جامعة القاهرة

الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م

الطبعة الثانية ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم المرسلين، وبعد:
فإن الناظر في تاريخ الفكر الإسلامي ليرى خضماً متلاطم الامواج متباين التيارات وليجد امامه ضرباً متنوعاً من النشاط الذي تختلف بواعثه وآثاره . وهو لا ريب واجد في الفرق الاسلامية العديدة بالذات امثلة كثيرة تظهر ما يتمتع به هذا الفكر من خصوبة وتنوع يسرهما له ما في الاسلام نفسه من ثورة على مظاهر الجلود العقلي ودعوة حارة إلى البحث والتمحيص وإعمال الفكر إلى ابعد مداه .

وقد كان المعتزلة إحدى اشهر الفرق التي لعبت دوراً بارزاً في توجيه دفعة الفكر الإسلامي ، وقدمت نموذجاً رائعاً لما ينبغي ان يكون عليه المفكر من إقدام على المسائل الخطيرة وجراءة في البحث والرأي والنقد واستخلاص النتائج القائمة على مقدمات عقلية واضحة. هذا إلى جانب تأثيرهم السياسي والاجتماعي والادبي ، سواء عندما كانوا مقربين من اولي الامر أم بعد النكسة التي أصابتهم بعدئذ .

وإذا قلنا : المعتزلة ، فإن أول ما يتبادر إلى ذهن السامع هم أولئك المفكرون الأفذاذ الذين تحرروا من أسار التقليد وانطلقوا خلف شعلة العقل المتوهجة في بحثهم عن الحق أين كان ، وهم أولئك الرجال العظماء الذين لولا

ما حاق بهم من مصير مؤسف دفعت بهم إليه الأيدي الرعناء لكان للمسلمين شأن غير هذا الشأن ولكان للفكر الإسلامي واقع غير هذا الذي نراه اليوم .

لقد اشتهر أهل الاعتزال - قبل كل شيء - باحتضانهم للعقل واحتفائهم به . فكان لازماً إذن أن يبرز هذا الجانب الرئيسي في تفكيرهم ، وكان ضرورياً أن نسلط عليه الأضواء ويحلى للناس بقدر الإمكان . ولذا كانت هذا البحث محاولة متواضعة لإظهار ما في تفكير المعتزلة من نزعة عقلية وميل واضح إلى استعمال هذا السراج الإلهي الذي منحه الله للإنسان في موضعه الصحيح .

وبقدر ما في هذا الأمر من أهمية بقدر ما فيه من عسر وصعوبة ؛ ذلك لأن هذه النزعة العقلية ليست مذهباً محدداً مشروحاً في كتب أو أبواب وفصول ، وإنما هي روح تسري خلال آثار المعتزلة على العموم . وبما زاد في هذه الصعوبة أن المعتزلة لم يخلفوا لنا سوى كتب معدودة لا تكفي للبحث والتقصي ، بسبب ما لقيته مؤلفاتهم الكثيرة من احراق وإبادة نتيجة لموجة العداء الشديد لهم التي أعقبت انهيارهم . فكانت مضطراً إلى تلمس بغيقي في ما كتب خصوم المعتزلة للرد عليهم ، وخاصة الأشاعرة .

أما من حيث اتساع الموضوع وتشعبه - بل وتشتته أحياناً - فقد كاد أن يفلت مني جوانبه ، بما دفعني إلى محاولة التضييق والتحديد ، وهذا ما قد يلمس القارئ أثره في بعض الأحيان . وإلى الاختصار في بعض الجوانب الأخرى كنت أود لو توسعت فيها وتوقفت عندها مدة أطول .

ولعل هذا ناتج عن ارتباط التفكير المعتزلي الديني والفلسفي بتيارات الحياة السياسية والاجتماعية مما يزيد في دائرة البحث والتنقيب وقراءة جوانب عديدة متشابكة لاستنتاج هذه النزعة من خلال تيار الفكر المعتزلي بوجه عام .

ولما كانت النزعة العقلية - كما قلت - روحاً سارية في تفكير المعتزلة ، فقد توجب عليّ متابعة تطوُّرم التاريخي منذ نشأتهم حتى نهايتهم ، مع التعرض

لعلقاتهم بغيرهم من ذوي الفكر في الإسلام وسواء ، ومحاولة تلص التآثر والتأثير في مختلف مراحل هذا التطور . كذلك يلحظ القارئ أنني حرصت على تقصّي مقدمات نشأة التفكير العقلي في الإسلام بصفة عامة ، ثم الفرق ، ثم المعتزلة بصفة خاصة - بشيء من الاسهاب - لأنني أرى أن هذا التفكير العقلي لم يبرز فجأة ، وإنما قام بناؤه حجراً فوق حجر ، وتشكل طوراً بعد طور .

كما وجدت نفسي ملزماً - في بعض الأحيان - بمقد مقارنات ، وإن كانت عابرة ، بين المعتزلة وسوام من المدارس الفكرية بغية الوصول إلى توضيح موقف المعتزلة ببيان مواقف غيرهم منهم في عديد المشكلات الفلسفية والدينية والسياسية وغيرها .

لقد كانت هذه الدراسة في أساسها بحثاً تمهيدياً لأطروحة ماجستير في الفلسفة الإسلامية ، ولم يكن معداً للنشر في الأصل ، لكن ابت « دار الفكر » إلا أن تنشره على علاقته وهنائه ، وهي كثيرة لا تعد ، وعذري فيها أنها خطوات البداية التي تدفع دائماً إلى العثار .

علي فهمي خشم

مصراته في ٢٥ / ١١ / ١٩٦٦ م

تمهيد

جاء الاسلام الى ارض الجزيرة العربية ، فوجد شعباً غلبت عليه البداوة ، ليس له في العلم والحضارة باع طويل . وكان أن لقي ارضاً صالحة للإيمان بالغيب ، مهيأة لتقبل الرسالة ، مستعدة لقبول الدين الجديد .

وقد اتفق الباحثون على خلوشه جزيرة العرب في تلك الفترة تقريباً ، من معالم الثقافة والحضارة والعلم المبني على اساس ونظريات وتفكير عقلي بمعناه الخاص .

كذلك لم يكن لدى العرب فلسفة بالمعنى المتعارف عليه - وإن لم يعمدوا نظريات ساذجة مبنية على التعارب الشخصية المحدودة ، في مسائل الفلك ، والمبادئ الوثنية الساذجة . وكان أهم ما لديهم من معالم التطور والثقافة لغتهم وشعرهم ، فكان اهتمامهم منصباً على الفصاحة والبلاغة نثراً وشعراً . وكان الشعر سجل حياتهم وأخبارهم وحروبهم ، والعاكس لطبيعة مجتمعاتهم وتكوينه ومثله وقيمه . اما التفكير العقلي - كمنهج - فلم يكن واضحاً أو متداولاً بمعناه المفهوم .

لكن القرآن الكريم ما لبث أن نزل وفيه من الحث على النظر والدعوة إلى التفكير واعمال الذهن في ملكوت الله وآياته الشيء الكثير ، بغية الوصول إلى إقناع الناس بعبادة الإله الواحد الذي تدل على وجوده ووحدانيته مختلف الظواهر الطبيعية والنفسية .

وكانت الآيات من امثال : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون »^(١) ، « وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون »^(٢) ، « أفى الله شك فاطر السموات والأرض »^(٣) ، « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »^(٤) ، « مثل هذه الآيات وغيرها كثيرة وواضحة . لكن الغرض منها كان واضحاً هو الآخر ، إذ هو توجيه النظر نحو الخالق الواحد والإيمان به وبرسوله ، عن طريق المعرفة بالعالم .

كما اننا لا يمكن أن نفعل ما في القرآن الكريم من قوة التحدي للمعاندين والجاحدين ، وموقفه المستثير للخصوم كان بمثابة دافع لمراجعة الأدلة والبراهين بالنسبة لأصحاب الديانات الأخرى ، كما هو حافز لمحاولة النظر واكتشاف مدى صحة الاعتقاد أو بطلانه من خلال تحليل براهين القرآن وحجج مخالفيه .

(١) سورة البقرة آية ١٦٤

(٢) الذاريات آية ٢٠ - ٢١

(٣) ابراهيم آية ١٠

(٤) فصلت آية ٥٣

بدايات التفكير العقلى فى الإسلام

براهين التفكير العقلي في الاسلام

يعتمد الدين في أول نشأته على الإيمان القلبي العميق والتسليم بما جاء به دون مناقشة جزئيات الاحكام وتفصيلها ، ولا يكون هناك غالباً مجال للنقد وإبداء الرأي وتحكيم العقل البشري - بمن يعتنقون الدين الجديد - خاصة في المسائل العقائدية الكبرى ^(١) .

لكن فورة الحماس الإيماني لا تلبث أن تهدأ ، وتبدأ من بعدها الاسئلة : كيف ، ولماذا ، ومتى ، وماذا ؟ .. ومن هنا تتشعب الطرق وتختلف السبل ، وتظهر الفرق الدينية المتباينة ، بل المتضاربة في كثير من الأحيان .

وكما يرى الدكتور ابو ريده من أن ما لاحظته بعض المستشرقين - مثل جولدزيهر وماينتر وغيرهما - في هذا الباب صحيح في الجملة . وهو أن البحث في ماهية الاحكام وفي اسرارها والاصول التي تقوم عليها لم يكن في العصر الأول ^(٢) للإسلام الذي حدث له نقص ما حدث لغيره من الديانات .

فقد نشأت الخلافات بين المسلمين بمجرد موت النبي (ﷺ) . وأغلب مؤرخي الفرق الإسلامية يرجعون الاختلافات بينهم إلى مسائل محددة ^(٣) تقريباً وإن اختلفوا في الالفاظ والنصوص اختلافاً يسيراً . إلا أن الشهرستاني

(١) أحمد امين - ضحى الاسلام ، ج ٣ ص ٣٠٢ ط مابدة .

(٢) ابو ريده - النظام : آراؤه الكلامية الفلسفية . ص ١٦٧

(٣) الملل والنحل من ص ١٧ - ص ٢٥ ج ١

يرجع بدايات النظر العقلي - بمعنى استعمال الرأي الشخصي وإبدائه - إلى زمن النبي (ﷺ) وإبان حياته ، فيقول :

« اعتبر حديث ذي الخويصرة التميمي إذ قال : أعدل يا محمد فانك لم تعدل . حق قال عليه السلام : إن لم أعدل فمن يعدل ؟ .. فعاد اللعين وقال : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ... قولاً بتحسين العقل وتقييده وحكماً بالهوى في مواجهة النص واستكباراً على الأمر بقياس العقل .

واعتبر حال طائفة أخرى من المنافقين يوم أحد إذ قالوا: هل لنا من الأمر من شيء ؟ وقولهم : لو كان لنا من الأمر من شيء ما قتلنا هاهنا .

وقولهم : لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ... تصريحاً بالقدر .

وقول طائفة من المشركين : لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء .

وقول طائفة : أنظمن من لو شاء الله أطعمه تصريحاً بالجبر .

كما ان هناك الذين جادلوا في الله وصفاته وأفعاله (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يحادلون في الله وهو شديد المحال)^(١) .

فهذا ما كان في زمانه عليه السلام ، وهو على شوكته وقوته وصحة بدنه ، والمنافقون يخادعون فيظهرون الإسلام ويبطنون الكفر^(٢) .

ثم يضيف الشهرستاني الى ذلك الخلافات الواقعة في حال مرض النبي وبعد وفاته ويصفها بأنها خلافات (اجتهدية) .. منها :

أن رسول الله قال وهو مريض: إيتوني بورق وقرطاس أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعدي . فمارض عمر بن الخطاب متملاً بمرض الرسول (ﷺ) .

(١) سورة الرعد آية : ١٣

(٢) يلاحظ ان مؤرخي العقائد المسلمين ينحرون باللائمة دائماً على المنافقين واليهود ويرمونهم بأنهم سبب الخلاف ونشأة الفرق المتصارعة في الاسلام .

والخلاف في تفسير جيش أسامة ، وإنكار عمر لموت النبي ، والاختلاف في موضع دفنه ؛ مكة أم المدينة أم بيت المقدس ، وفي التوارث عنه ، وفي قتال مانعي الزكاة ، وفي نص أبي بكر على عمر في الخلافة ، واختلافات في الارث والدية وغيرها . ثم شغلت المسلمين الفتوح ، واتفقوا في تولية عثمان لكنهم اختلفوا في تصرفاته ، ثم كانت خلافات علي مع عائشة ومعاوية وحرب الجمل وصفين - وظهور (الخوارج) و(الفلاة) وفي مقدمتهم عبدالله بن سبأ - وكانت هذه - كما يقول - بداية الضلالة والبدعة .

ويتفق ابو الحسن الاشعري مع الشهرستاني - وان كان اقل تفصيلا - ويجعل اول خلاف بين المسلمين في مسألة (الامامة)^(١) بينما يجعله الاسفراييني^(٢) في وفاة النبي (ص) ... ثم تعدد باقي الاختلافات .
يعلق ابو مظفر الاسفراييني بقوله :

« إن الخلاف لا يكون خطراً إلا اذا كان في اصول الدين »^(٣) ، ولم يكن اختلاف بينهم في ذلك ، بل كان اختلاف من يختلف في فروع الدين ، مثل خلاف الفرائض فلم يقع خلاف يوجب التفسير والتبري ... وظهر في أيام المتأخرين من الصحابة خلاف القدريه وكانوا يخوضون في القدر والاستطاعة ، كمعبد الجهني وغيلان الدمشقي والجمعد بن درهم . وكان ينكر عليهم من كان قد بقى من الصحابة كمعبد الله بن عمر وعبدالله بن عباس وعبدالله ابن ابي اوفى وجابر وأنس وأبي هريرة وعقبة بن عامر الجهني وأقرانهم ،^(٤) .

اما عبد القاهر البغدادي فيقول :

(١) مقالات الاسلاميين . ص ٢٩ - ٦٤

(٢) التبصير في الدين . ص ٢٥ - ٢٩

(٣) فليلاحظ القارئ تشابك الخلافات الدينية بالخلافات السياسية فيما سبق .

(٤) التبصير . ص ٢٩ .

« كان المسلمون عند وفاة رسول الله (ﷺ) على منهاج واحد في اصول الدين وفروعه ، غير من اظهر وفاقاً وأضمر تفاقاً » .

وبعد أن يعدد الخلافات التي ذكرناها يقول : « ثم حدث في زمن المتأخرين من الصحابة خلاف القدريّة في القدر والاستطاعة من معبد الجهني وغيلان الدمشقي والجمعد بن درهم . وتبرأ منهم المتأخرون من الصحابة كعبدالله بن عمر وجابر بن عبدالله وأبي هريرة وابن عباس وأنس بن مالك ... إلخ » (١) .

فها نحن ندرك مما تقدم أن هناك (اختلافات) حصلت في زمن النبي وبعده بقليل في عديد المسائل الدينية والسياسية ، ولا يمكن بحال أن يكون هناك خلاف إلاّ اذا كانت (وجهات نظر) متعارضة قد ظهرت ، معبرة عن رأي اصحابها الخاص وموضحة لمواقفهم من المشكلات المعاصرة لهم . وهي وجهات نظر بسيطة لم تبلغ مبلغ التعقيد بعد . كما لاحظنا بدايات لآراء تمس العقيدة والاصول الدينية مثل القول بالقدر في أيام أواخر الصحابة الذين اتخذوا موقف المعارضة لمثل هذا الاتجاه - حسب قول المؤرخين من أهل السنة والأشاعرة .

القرآن الكريم كمصدر للتفكير العقلي في الاسلام :

بقدر ما كان القرآن كتاب عقائد وعبادات ، فهو كتاب فيه من الدعوة الى النظر العقلي الشيء الكثير .

إذ لم يكن القرآن كتاب مواظ أخلاقية فقط أو تاريخاً أنزل كعبرة عن قرون ماضية ، وإنما هو كتاب ميتافيزيقي وأخلاقي وعلمي ، وضع الخطوط الرئيسية للوجود كله . فهو كتاب الكون منذ نشأته إلى فناءه (٢) .

(١) الفرق بين الفرق ص ١٤ - ١٩

(٢) د . علي سامي النشار في (نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام) ج ١ ص ٢

ومن الخطأ البالغ انه يقال أن القرآن خلو من النظريات الكونية والفلسفية وانه لم يرتد آفاق الوجود لكي يحدد ما في صورة نهائية ^(١) .

فالقرآن الكريم إذن كان أحد المصادر الكبرى - إن لم يكن أكبرها - للنزعة العقلية ، بمحتة على تحكيم العقل ، وبالنظرة العقلية غير الاسطورية أو الخرافية التي جاء بها . بل ويتحدیه القوي لحجج معارضية ، ومطالبتة إياهم بأن يأتوا ببرهانهم إن كانوا قادرين ، لدفع ما في القرآن من حجة بالغة ودليل قاطع . كذلك بلغته وطريقة خطابه أيضاً ، وبما فيه من آيات محكمة ومتشابهة كانت عاملا من عوامل الاختلاف في الرأي والتفسير والاجتهاد .

يقول د . محمد البهي : « إن لغة القرآن ولغة الحديث سبب ثان يضاف إلى الخلافات السياسية السابقة في إيجاد التحزب في الرأي والتفرق في فهم العقيدة ^(٢) أما الآيات المتشابهة في القرآن فقد كانت أكبر عوامل الاختلاف والفرقة ، إذ جاءت آيات محكمات معبرة عن الحقائق المطلقة والكلية ، ومتشابهة عن النسبيات أو الظاهريات أو المجازيات (كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) ^(٣) . وفي الثانية كان الاختلاف حتى سار كل في طريق ^(٤) .

الخلافات السياسية :

يرى الكثيرون - وهم على حق - أن ارتباط الدين بالسياسة كان أحد أسباب نشأة الفرق الإسلامية .

فإن جانب التيارات المتصارعة داخل الكيان العربي كانت هناك قوى

(١) د . علي سامي النشار في (نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام) ج ١ ص ٢ .
(٢) الجانب الألهي من التفكير الاسلامي ص ٣٤
(٣) سورة : هود آية : ١
(٤) د . ابوريدة ومحاضراته في علم الكلام بآداب الجامعة الليبية للعام الجامعي ١٩٥٩
- ١٩٦٠ م .

خارجية - فارسية ويهودية ونصرانية - أثرت تأثيراً واضحاً في خلق مذاهب دينية - سياسية تسخرها لغايات بعيدة، بينما ظاهرها الدين والنظر والاجتهاد العقلي المحض .

وهذا مما يجعل مهمة الباحث في نشأة الفرق الإسلامية دقيقة ومعقدة إذا ما أراد تفصي عوامل هذه النشأة من زاويتها تلك ، وليس هذا موضعه .

البدايات الأولى للمفترلة

البدايات الأولى للمعتزلة

النشأة و الاتصال

النشأة :

يحاول الكثيرون من مؤرخي الفلسفة الإسلامية أن يعودوا بنشأة المعتزلة إلى أيام الحسن البصري ، وبالتحديد إلى ظهور واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد . لكن الحق أنه لا يمكن أن يكون الأمر بهذه السهولة والبساطة ، إذ ليس من المعقول أن يقوم مذهب متكامل بين ليلة وأخرى ، وأثناء جلسة واحدة ، وإثر اختلاف بسيط في مسألة هي مثار جدل واهتمام عامة المسلمين ، وهي مسألة مرتكب الكبيرة .

إن لمذهب الاعتزال جذوره العميقة ، إذا ما تتبعناه تاريخياً وسياسياً . فقد بدأ منذ الفتنة مذهب (الاعتزال) بمعنى الابتعاد والانفصال أو الحياء ، ثم اختلط المعنى الديني بالمعنى السياسي حتى أيام واصل .

كما أنه من الناحية المذهبية العقائدية كانت هناك عدة تأثيرات سابقة من الذين ذهبوا إلى القول بالقدر خيره وشره من الإنسان ، واتصالات بالهجرة من اصحاب الجهم بن صفوان وتأثر بهم في مسألة خلق القرآن ونفي الرؤية .

يقول نيرج : « إن الاعتزال أول ما نشأ من القدرية ، وهي فرقة من فرق السلف كانت تقول بالقدر خيره وشره من العبد ، وباختياره في أفعاله ليعاقب عليها أو يثاب ^(١) » .

(١) مقدمة كتاب (الانتصار) ص ٤٩

ويقول الشهرستاني : إن الاختلافات في الأصول حدثت في آخر أيام الصحابة حين ظهرت بدعة معبد الجهني وغيلان الدمشقي ويونس الاسواري في القول بالقدر ، وإنكار إضافة الخير والشعر الى القدر ونسج على منوالهم واصل بن عطاء (١) .

ويورد طاش كبرى زادة في (مفتاح السعادة) : قيل كان اول من احدث مذهب الاعتزال واخترعه الإمام ابو هاشم وأخوه الإمام الحسن بن محمد بن الحنفية . كما يثبت طاشن كبرى زادة ان واصلأ أخذ عن أبي هاشم عبدالله ابن محمد بن الحنفية (٢) .

ويقول ابن خلدون في مقدمته : « ثم لما كثرت العلوم والصنائع وولع الناس بالتدوين والبحث في سائر الانحاء ، وألف المتكلمون في التنزيه ، حدثت بدعة المعتزلة (٣) .

وابن المرتضى في (المنية والأمل) يذهب إلى أن مذهب الاعتزال يرجع الى الصدر الاول للإسلام ، وعدّ من الطبقة الاولى للمعتزلة الخلفاء الاربعة وعبدالله بن عباس وعبدالله بن مسعود وغيرهم ... والذي يظهر من كلامه انه يريد ان يعد معتزلياً كل من ذكر له من الصحابة والتابعين قول يدل على ان الإنسان حر الإرادة او يدل على انه يرى الحسن والقبح العقليين ، لانه استدل مثلاً على أن ابا بكر وابن مسعود يريان مذهب الاعتزال بأنها قالوا في المرأة المفوضة في مهرها برأييهما ، اي انها يقولان بالحسن والقبح العقليين ، ولذلك حكما بالرأي (٤) .

لكن أغلب المؤرخين يقرنون بداية ظهور مذهب الاعتزال بالواقعة الشهيرة التي حدثت في مجاس الحسن البصري وانفصل ، او اعتزل ، اثرها واصل

(١) الملل والنحل : ج ١ ص ٢٩ .

(٢) تهديد لتاريخ الفلسفة الاسلامية للشيخ مصطفى عبد الرازق . ص ٢٨٧

(٣) المقدمة ص ٤٦٤ ط . التجارية .

(٤) أحمد امين / فجر الاسلام ص ٢٩٦ .

وعمر وطفقا يدعوان لمذهبها الجديد .

يقول البغدادي ^(١) : « ثم حدث أيام الحسن البصري خلاف واصل بن عطاء الفزال في القدر وفي المنزلة بين المنزلتين ، وانضم اليه عمرو بن عبيد بن باب في بدعته ، فطردهما الحسن عن مجلسه ، فاعتزلا إلى سارية من سوارى مسجد البصرة ، فقبل لهما ولأتباعهما (معتزلة) لاعتزالهم قول الأمة في دعواهم أن الفاسق من أمة الاسلام لا مؤمن ولا كافر » .

ويذكر أبو مظفر الاسفرايني شيئاً من هذا القبيل ^(٢) . ويذكر نيرج القصة غير مفصلة مبيناً أن عمراً وواصلاً (وسعا مجال القدريّة وأدخلا فيها ملاحظات جديدة) ^(٣) .

لكن الشهرستاني يروي القصة كاملة حيث يقول : ^(٤) « والسبب في القول بالمنزلة بين المنزلتين أنه دخل واحد على الحسن البصري فقال : يا إمام الدين ! لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة وهم وعبيدة الخوارج ، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان ، بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان ، ولا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وهم مرجئة الأمة ، فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً ؟ . . »

فتفكر الحسن في ذلك . وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء : أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ولا كافر مطلقاً ، بل هو في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر . ثم قام واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن . فقال الحسن : اعتزل عنا

(١) الفرق بين الفرق . ص ٢٠ - ٢١

(٢) التبصير في الدين . ص ٢٩

(٣) مقدمة (الانتصار) . ص ٤٩ - ٥٠

(٤) الملل والنحل . ص ٦٧ - ٦٨

واصل . فسمي هو وأصحابه معتزلة .

من هذه القصة يتضح لنا ما يلي :

- (١) أن هناك موضوعاً شغل تفكير المسلمين وهو موضوع مرتكب الكبيرة.
- (٢) أن هناك صراعاً ومواقف مختلفة منه . فالجوارج يكفرونه ويسمونهم (كافرين) والمرجئة يعتبرونه (مؤمنين) والحسن البصري يسميه (منافقاً) بينما سماء واصل (فاسقاً) باسمه المعروف به ، لا مؤمن ولا كافر .
- (٣) أن واصل قد كوّن آراءه قبل هذه الحادثة أو السؤال ، وإلا لما سبق أستاذه في الإجابة ، ولما قام من فوره بقرره رأيه ويشرحه لو لم يكن مستعداً لذلك .
- (٤) أن هذه الواقعة كانت بمثابة (الإعلان الرسمي) لمذهب المعتزلة وانفصال قادتهم عن الحسن البصري الذي تشربوا منه بلا ريب بعض آرائه .

الاتصال :

عرضنا - في إيجاز - لنشأة المعتزلة ، وقررنا أن لمذهب الاعتزال بدايات سياسية ودينية قبل الاعلان الرسمي عنه في حلقة الحسن البصري على يد واصل وعمرو بن عبيد . وينبغي علينا الآن أن نعرض اصلاات المعتزلة قبل الاعلان وبعده - بمختلف التيارات والمذاهب والديانات حتى نرى مقدار تأثيرهم وتأثيرهم - خصوصاً في ميدان التفكير العقلي، وتغليب العقل على سواه . وقد يحلو لكثيرين من دارسي الفلسفة الاسلامية أن يقرروا أن المتكلمين - وفي مقدمتهم المعتزلة - لم يتأثروا بأية تيارات خارجية عن صلب القرآن والاسلام بصفة عامة، وأن ما بحثوه من مشكلات واختلفوا فيه - كشكلية القدر ومدى فاعلية العبد والاختيار والسمع والعقل - شيء يعرض لجميع العقول الانسانية، ولجميع الديانات بعد مرحلة معينة من القبول والنضج .

لكن هذا رأي فيه كثير من التعسف ، إذ لا يستطيع امره انكار تداخل

الثقافات واتصالها بعضها ببعض الآخر ، وتأثرها ايضاً - ولو في الحطة والاسلوب .

كذلك يقف في الجانب الآخر من يقول بأخذ المتكلمين - وخاصة المعتزلة - عن غيرهم من الفلاسفة واليهود والنصارى ، بل والصابئة والزرادشتية والمناوية . وهؤلاء فريقان :

مؤرخو الفكر الإسلامي الأقدمون - وفعلوا هذا بقصد تشويه صورة المعتزلة - وهم في الأغلب خصوم لهم - بنسبة آرائهم للمخالفين في الدين والعقيدة والمذهب ، وتحقيرهم لدى العامة . والفريق الثاني هم المستشرقون والمهتمون من الغربيين بالدراسات الإسلامية ، بعضهم عن حسن نية وبحث من أجل العلم والحق ، وبعضهم ليدلل على عدم أصالة الفكر الإسلامي . وهم في هذا جد مخطئون : إذ ماذا يضير الفكر الإسلامي أن يأخذ عن غيره بعض المسائل المشتركة بين العقول ، أو يأخذ أسلوب معالجته لهذه المسائل ، إذا كان غيره سيأخذ عنه هو الآخر بحكم التطور البشري وحتمية تكون الحضارات ؟ وما دامت المسائل الكبرى تابعة من كتاب الإسلام الأول ، القرآن الكريم ، ناقشها أحياناً بإفاضة ، أو أشار إلى بعضها إشارة موجزة ، تاركاً العقول تعمل عملها الذي خلقت من أجله ، وهو التفكير والتدبر والنظر ..؟

إن المسائل العقلية شيء يعرض لكل العقول ، وليس من ضير في أن يتفق فلاسفة الإسلام ومفكروه مع غيرهم في نتائج البحث ، وإن اختلفوا في السبل والمنهج ، أو العكس .

على كل حال ، فإنني أميل إلى القول بأن المعتزلة كانوا من سعة الافق والاستعداد لتلقي العلم والمعرفة وإشاعها على درجة كبيرة جداً ، مما يسر لهم دراسة الفلسفة اليونانية ، والمذاهب الفارسية والهندية ، والديانات اليهودية والنصرانية ، إلى جانب احتكاكهم عن طريق التأييد أو الهجوم بالمذاهب التي نشأت في حضن الإسلام من رافضة وخوارج ومرجئة وشيعة وغيرهم .

يقول الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة عن النظام مثلاً : « ونعرف عنه أنه أجمع في قراءة كتب الفلاسفة وأنه كما يقول ابن المرتضى حفظ القرآن والتوراة والانجيل والزبور وتفسيرها ^(١) » .

(١) ابراهيم بن سيار النظام : آراؤه الكلامية والفلسفية . ص ١٠

المؤثرات في اتجاهات المصنعة العقلية

المؤثرات في اتجاهات المعتزلة العقلية

لا بأس لدينا هنا من أن نشير إلى المؤثرات التي حددت خط سير المعتزلة ومنهجهم العقلي ، ما دام بحثنا ينصب على النزعة العقلية لديهم ، حتى نكون على بينة من أمرنا وأمرهم ما دمنا قد قررنا ان نشأة المعتزلة لا تخلو من تأثير على أي حال .

وأول ما تجدر الإشارة اليه في هذا المجال - وفي مجال علم الكلام بصفة عامة - هو :

القرآن الكريم

وقد أثرنا في إيجاز الى ما جاء في القرآن الكريم من إشادة بالعقل وتمسك بتحكيمة في أي خلاف أو صراع ، واللجوء اليه في معرفة الخالق سبحانه وحقوقه على عباده . فالقرآن - كما سبقت الإشارة - كتاب فيه من اسباب النظر ودواعي التفكير الشيء الكثير . بل هو يحتوي على آراء ونظريات شاملة في الكون والوجود ومسائل ما وراء الطبيعة ، إلى جانب ما اتي به في ميدان العلم الطبيعي (أو ما نسميه بالتجريبي اليوم) مما وسع الأفق أمام

إعمال الفكر عند المسلمين . فالقرآن كتاب ميتافيزيقي ، علمي ، فضلاً عن كونه كتاباً دينياً يحتوي على العبادات والشعائر الدينية وكيفية أدائها . وهو زيادة على ذلك بعيد كل البعد عن الاساطير الخرافية ، او القصص الخيالية التي نجد الكثير منها في كتب الديانات الأخرى . بل Toshak ان تعتمد عليها اعتماداً كلياً .

وكما يقرر الدكتور ابو ريدة من أنه ينبغي ألا نهمل أثر القرآن في تطور مباحث المتكلمين وفي مناقشتها . وقد جاء في القرآن مسائل هي من أوائل ما عالجها اهل الكلام كمسائل القدر والتكيف والاختيار وفعل العبد ومسئوليته^(١)

لكن المعتزلة عندما وجدوا آيات من أمثال : (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها^(٢)) ، (كل نفس بما كسبت رهينة)^(٣) ، (وقال الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)^(٤) (قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدي فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها) .^(٥) ما لبثوا أن أحسوا بأن هناك مجالاً واسعاً للحرية الانسانية في افعال العبد وقدرته على التصرف والفعل ، على الأقل لتبرير العقاب والثواب .

هم وجدوا في القرآن الكريم ترحيباً بأن يكون للانسان قسط وافر من حرية التصرف والتفكير .

فإذا ما اصطدموا بآيات تدل على الجبر والتقييد والحد من هذه الحرية من أمثال : (كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء)^(٦) ، ان الذين

(١) النظام — ص ٩٦

(٢) سورة فصلت . آية ٤٦

(٣) سورة المدثر . آية ٣٨

(٤) سورة الكهف . آية ٢٩

(٥) سورة يونس . آية ١٠٨

(٦) سورة المدثر . آية ٣١

كفروا سواء عليهم أن نذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى
ابصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم (١١) ، (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره
للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء) (١٢)
لجأوا إلى التفسير والتأويل للآيات حتى تتفق مع ما يقضي به العقل ، والتأويل
لداع عقلي جائز .

مؤثرات اسلامية :

برزت إلى جانب الاحداث السياسية العميقة الغور ، أحداث اعتقادية
جدلية - بحكم التطور العقلي - من أمثال الحديث في القدر والاختيار ، ورؤية
الله تعالى ، وخلق القرآن ومرتكب الكبيرة ... الخ . مختلطة بالسياسة
والصراع على الامامة او الخلافة .

وكان طبيعياً - بعد أن فرغ المسلمون من الفتح او كادوا - أن يتفرغوا
للمشاكل الجديدة ، اجتماعية ودينية وسياسية . فقد دخلت حياتهم عادات
وتقاليد غريبة - بحكم اختلاطهم بالفرس وغيرهم من الأمم - وظهر في المجتمع
فساد وانحلال سبب ضيقاً للمتمسكين بالدين وأثار جدلاً عنيفاً وخاصة في مسألة
مرتكب الكبيرة . وفي الميدان السياسي كان الصراع محتدماً حول الخلافة أو
الامامة . فنشأت فرق الخوارج والمرجئة وكوّن واصل رأياً جهر به في
مرتكب الكبيرة ، وهو القول بالمنزلة بين المنزلتين .

ولا شك أن واصل قد اتصل قبل أن يبدي برأيه (الجديد) بكثيرين
وأخذ عنهم . منهم ابو هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية الذي قيل انه كان
أول من أحدث مذهب الاعتزال واخترعه (٣) والذي تربي واصل في أحضانه (٤)

(١) سورة البقرة. آية ٦ - ٧

(٢) سورة الانعام آية ١٢٥

(٣) طاش كبرى زادة في (مفتاح السعادة) نقلًا عن الشيخ عبد الرزاق. عميد ... ص ٢٨٧

(٤) د. نشار - نشأ الفكر الفلسفي في الاسلام . ص ٢٦٦

واخذ عنه ، والحسن البصري الذي كان يتفق معه وعمرو بن عبيد في القول
بالقدر - ولا شك ان تأثير الحسن كان كبيراً في هذه النقطة بالذات ، وان
قبل انه رجع عن هذا القول .

كما ان من المحتمل أن يكون واصل قد اتصل بغيلان بن مسلم الدمشقي
مولي الامويين ^(١) ، وكما يروي الشهرستاني ان المعتزلة في قولهم بالقدر إنما
سلكوا في ذلك مسلك معبد الجهني وغيلان الدمشقي ^(٢) .

اما دي بور ^(٣) فيذكر انه « اخذت تتميز بالتدرج مذهب اسلامية
متسقة اكثرها انتشاراً - ولا سيما بين الشيعة - مذهب المعتزلة الذين جاءوا
خلفاء للقدورية وأقاموا مذهبهم على النظر العقلي » .

ونحن نعلم ان هناك طوائف كانت تقول بالقدر خيره وشره من العبد قبل
ظهور المعتزلة .

وجاء في الفرق بين الفرق ^(٤) : أن هؤلاء اتباع واصل بن عطاء رأس
المعتزلة وداعيتهم الى بدعتهم بعد معبد الجهني وغيلان الدمشقي .

أما عن صلة المعتزلة بالحسن البصري - الصوفي المحدث العالم الكبير - فهي
لا تخفى على أحد . فقد كان تتلمذه واصل وعمرو ، وبعض مواقفهم -
خاصة في رسالته الى عبد الملك بن مروان - تبين على اتفاقه في الرأي مع
تلميذه وان لم يحجر به ويدع اليه . وذلك اللين واليسر الذي أخذ به تلميذه
الذي (اعتزله) يدل على رضاه ، او على الأقل عدم غضبه منه . كذلك
قوله لمعبد الجهني وعطاء بن يسار حين حدثاه عن ظلم بني امية وقولهم ان
هذا بقضاء الله وقدره : « كذب أعداء الله » ^(٥) . وأخيراً نرى المعتزلة تجتمع

(١) نفى المصدر ص ٢٦٩

(٢) الملل والنحل ص ٦٦

(٣) تاريخ الفلسفة في الاسلام . ص ٩٧ ط رابعة .

(٤) الفرق بين الفرق . ص ١١٧

(٥) الملل والنحل . ص ٦٤ ج ١

حول الحسن البصري الذي يصرح بأن كل شيء بقضاء الله وقدره (الا المعاصي)^(١) كل هذا يثبت تحرر الحسن البصري وميله الى القول بالقدر ، ويثبت تأثيره في المعتزلة وتضامنه معهم ولو من وراء ستار .

هناك شخصية اخرى لها وزنها، ولها تأثيرها أيضاً في تكون آراء المعتزلة وان وقفت منهم على طرفي نقيض ، وأعني بها الجهم بن صفوان .

كان الجهم جبرياً خالصاً ، والمعتزلة قدرية . لكن المعتزلة آمنت بالتأويل العقلي واعتبار حجة العقل مصدر المعرفة وهذا ما فعله الجهم^(٢) .

الاتفاق في التأويل العقلي اذن كان العلاقة الرابطة بين المعتزلة والجهمية . يحجب المعارف بالعقل قبل ورود السمع قاعدة يضعها جهم وتفسيرها : العقل يوجب ما في الاشياء من صلاح وقبح وفساد وحسن . العقل وحده هو الذي يفصل هذا قبل ان ينزل الوحي مقررأ ان هذا الشيء حسن وهذا قبيح . ولعل هذا الاصل الذي وضعه الجهم اتخذته المعتزلة فيما بعد وبنوا عليه المقولة المشهورة في المعرفة والتحسين والتقبيح العقلين .

وكان اتصال واصل يجهم عن طريق حفص بن سالم في ترمذ بخراسان ، وكانا يتفقان ايضاً في القول بنفي الصفات ، وخلق القرآن ، واختلفا في القدر . وكان عجيباً ان يتفق الحصان ويلتقي الضدان ، حتى نجد ان مذهب (سكون اهل الخلدن) لدى أبي الهذيل قريب من مذهب جهم^(٣) .

لكن المعتزلة كانوا يتهبون من إثبات صلاتهم بجهم وينفونها ، بينما يعمل خصومهم على هذا الاثبات ، وان كان قد ثبت بالتاريخ أن المعتزلة القديمة قد فاظرت الجهمية وتبرأت منها^(٤) .

(١) نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام . ص ٣٠٦

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٣

(٣) الملل . ص ٧٣

(٤) نيرج في مقدمة (الانتصار)

كانت أيضاً هناك صلات (غير ودية) بين المعتزلة وبين طائفة المحدثين وكان المحدثون يحنقون على المعتزلة اشدّ الحنق ، لأن هؤلاء المعتزلة كانوا لا يدخرون وسعاً في تكذيبهم وشن الحملات عليهم ، لأن أغلبهم لا ينتقد احاديثه أو هي تتعارض مع العقل السليم ، أو يذهب مذهب التشبيه ، وفي مقدمتهم المحدث مقاتل بن سليمان الذي عاش في زمن واصل وعمرو .

كما اتخذ المعتزلة موقف الهجوم على الثنوية المتسترة والسمنية والرافضة ، وغيرهم ، وضد الخوارج والمرجئة . فكانت العلاقات بينهم وبين هذه الطوائف مشحونة بالعداء .

والحق أن بعض أهم اصول المعتزلة كانت موضوعة أولاً للرد على الرافضة والملحدين . والواقع أنهم لم يزالوا على أشدّ عداوة لهم حتى آخر امرهم (١) .

ثم هناك اخيراً السلفيون أو أهل السنة . . . وهم الطائفة الكبرى التي تصارعت مع المعتزلة وفازلتهم حتى هزمتهم في نهاية الامر بانضمام الامام ابي الحسن الأشعري - المعتزلي السابق - اليهم ورجوعه عن آرائه الاعتزالية الى مذهب أهل السنة مما شكل ضربة عنيفة للمعتزلة ومذهبهم . . وهذا ما سنفرد له قسماً خاصاً بإذن الله

كان السلف يرون في اتباع الكتاب والسنة ، دون تأويل أو تفسير ، وفي التسليم بالقضاء والقدر ، وإن العبد مسير حسب مشيئة الله وإرادته ، وفي البعد عن المراء والجدل - الا اضطراراً - في العقائد وفي المسائل الدقيقة الحساسة . . يرون في هذا منجىً للمسلمين والاسلام ، متمسكين بالقرآن والحديث والسنة .

وكان المعتزلة على النقيض ، يغلبون العقل في التأويل على النقل ، ويتمادون في هذا التغليب الى أبعد مدى . وهذا ما ارتث تار الخصومة بين الفريقين . وهي خصومة - على ما فيها من تفريق بين المسلمين - الا أن لها فوائد لاتنكر

(١) نفس المصدر . ص ٥٦

تتمثل في هذه الثروة الكلامية الرائعة التي خلفها لنا أجدادنا ، وفي هذا الجدل الذي ازال الصداً عن العقول واطلقها باحثة ناقدة متفحصة في سبيل الحق الاسمى الذي طلبه الجميع .

فصلات المعتزلة اذن كانت كبيرة يختلف الطوائف والفرق داخل الجماعة الاسلامية ، وان تباينت طبيعة هذه الصلات . فهي تارة علاقات اتفاق والتقاء في وجهات النظر ، وطوراً علاقات نفور وتطاحن وصراع . لكن الاحتكاك والتأثر والتأثير كان موجوداً على اية حال ، والمتتبع لهذا الموضوع يجد مصداق ما نقول .

مؤثرات اجنبية :

والآن اشعر بأنه ينبغي علينا ان نعرض للمؤثرات الأجنبية في الفكر المعتزلي ، خاصة فيما يتعلق بالزرعة العقلية لديهم .

ونحن وان كنا نتفق مع الاستاذ احمد امين والدكتورين علي سامي النشار ومحمد البهي ومن سار مسارهم ، في ان المشكلات التي عرضت للفكر الاسلامي هي اسلامية النشأة والبيئة ، الا ان هذا لا يمنع من القول بان طرق او سبل او خطة معالجة هذه القضايا لا بد ان تشارك وتتداخل ، بحكم كونها مشكلات انسانية ايضاً تعرض لكل عقل انساني .

ولا بد ونحن ندرس طائفة كبرى من رجال علم الكلام الذي هو الى الفلسفة اقرب - من ان نرى علاقة هذه الطائفة بالفلسفة اليونانية وسواها من الفلسفات ذات الاثر الكبير في الفكر والثقافة العربيين . كذلك ، ونحن ندرس علم الكلام المقابل للاهوت - يجب علينا ان نرى العلاقة بين مشكلات الديانتين النصرانية واليهودية وسواهما وبين المشكلات الكلامية الاسلامية . والا كنا بغير هذا نبعد كثيراً عن الصواب . اذ لا شك ان نمو علم الكلام متصل باتساع الأفكار بين المسلمين وازدياد معرفتهم بالثقافات الأجنبية على اختلاف ألوانها . كما ان

المتكلمين - ومن اوائلهم المعتزلة - هم اول من قرأ الثقافات الاجنبية وقاؤروا بها ^(١) .

اولاً : الفلسفة :

يلاحظ الدارس أول ما يلاحظ أن أغلب مؤرخي المعتزلة الأقدمين - واكثرهم من أهل السنة او الاشاعرة - يرجعون جل أفكار قادتهم الى الفلاسفة اليونانيين خاصة ، كأنما (يهتمونهم) بالأخذ من مصدر غير اسلامي ، ويوحون للقارئ بمخروج المعتزلة عن دائرة الدين ما داموا قد سمحوا لأرائهم ان تتكون بفضل الفلسفة (الملحدة) .

في « الملل والنحل » لمحمد بن عبد الكريم الشهرستاني مثلاً يكاد يختم كل جملة عن أحد شيوخ المعتزلة بإرجاع آرائه للفلاسفة ، وانه موافق لهم في كيت وكيت ، وأخذ عنهم كذا وكذا .

فهو يقول مثلاً : وإنما شرع أصحاب واصل فيها (مقالة نفى الصفات) بعد مطالعة كتب الفلاسفة . ^(٢) وعن ابن الهذيل انه اقتبس هذا الرأي من الفلاسفة الذين اعتقدوا ان ذاته واحدة لا كثرة فيها بوجه ص ٧١ وان ابراهيم النظام قد طالع كثيراً من كتب الفلاسفة وخلط كلامهم بكلام المعتزلة - ص ٧٧ ، وأخذ مقالة (الاصلح في الآخرة) عن قدماء الفلاسفة - ص ٧٨ ، كما وافق الفلاسفة في نفى الجزء الذي لا يتجزأ - ص ٧١ ، وأخذ مقالته في الظهور والكمون من أصحابها من الفلاسفة - كما ان أحمد بن حابط ^(٣) والفضل الحداثي طالعا كتب الفلاسفة - ص ٨٨ - ويقرر الشهرستاني أن بشرأ بن

(١) ابراهيم بن سيار النظام - د . ابو ريدة ص ٦٨ ، ٦٩

(٢) الملل ص ٤٥

(٣) أر خابط ار حائط .

المعتمر اخذ عن الطبيعيين قوله بتولد اللون والطعم والرائحة .. كما اخذ معمر ابن عباد السلمي رأيه في حقيقة الانسان عن الفلاسفة - ص ٩٩ ، وكان الرجل يميل الى الفلاسفة - ١٠١ .

ونفس هذا الكلام يقوله عن الجاحظ ، الذي مذهبه هو يعينه مذهب الفلاسفة - ص ١١٥ ، ويقول عن ابي الحسين البصري إنه فلسفي المذهب هو الآخر .

هي تهمة إذن أن يطلع المعتزلة على الافكار والنظريات الفلسفية ، لكنها (تهمة) ذات فائدة عظيمة في تاريخ الفكر الاسلامي .. فقد غذته بأساليب جديدة للبحث ومنهج ، وقدمت له خطة عقلية زادت من وثاقته ، وامتدته بحجج يتقي بها الهزيمة عند النزال ..

وكان طبيعياً أن يتدارس المعتزلة الفلسفة ، وهم الذين عاصروا حركة الترجمة العظمى ، وكان لهم وزنهم أيام المنصور ، كما كانوا أهل الحول والطول أيام المأمون .. وكان بديهياً أن تظهر التأثيرات الفلسفية في امثال ابراهيم ابن سيار النظام وأبي الهذيل العلاف وابن عثمان عمر بن بحر الجاحظ وغيرهم من فطاحل المعتزلة وكبارهم .

يقول ابن خلدون (١) : « ثم كان من بعد (أرسطو) في الاسلام من أخذ بتلك المذاهب واتبع فيها رأيه حذو النعل بالنعل الا في القليل . » ولعل المعتزلة كانوا في مقدمة دارسي أرسطو وإن خالفه بعضهم وعارضوه .

ويقول : « ثم خلط المتأخرون من المتكلمين مسائل علم الكلام بموضوع الآلهيات ومسائله بمسائلها فصارت كأنها فن واحد . »

اما المقرئ فيذكر انه اشتهرت مذاهب الفرق من القدرية والجهمية والمعتزلة والكرامية والروافض والخوارج والقرامطة والباطنية ، حتى ملأت

(١) المقدمة . ص ٩٥ ط المكتبة التجارية

الأرض ، « وما منهم الا من نظر في الفلسفة وسلك من طرقها ما وقع عليه اختياره . » (١)

ويقرر نيجرج ان المعتزلة قامت بأشد ما احتاج اليه الاسلام في ذلك العصر وهو الاستعانة بما استعانت به الديانات الأخرى من اسلوب متين وطريق فلسفي لابرار ما يكن في الدين من القوى والفضائل (٢) .

كما كان المعتزلة اسرع الفرق للاستفادة بالفلسفة اليونانية وصبغها صبغة اسلامية ، والاستعانة بها على نظرياتهم وجدالهم . (٣)

فاستعانة المعتزلة بالفلسفة اذن امر مقرر - سواء في الاخذ بأسلوبها في الجدل والكلام - وهذا ما نصرهم على كثير من خصومهم وجعلهم مبرزين في مجال الكلام - أو في الاخذ ببعض الآراء الفلسفية المحضة ، كما يظهر عند النظام وابن الهذيل والجبائي والجاحظ وغيرهم ، من امثال مسألة الكمون ، وسكون اهل الخلد ، والديانة العقلية ، ومسائل الجوهر والعرض ، والتولد... الخ .

لكن هذا لا يعني ارتقاء المعتزلة في احضان الفلاسفة بلا تمييز ولا حذر . فقد كانت لهم شخصيتهم الاسلامية المميزة ، والمدافعة عن الدين ، المتسلحة بأقوى الأسلحة وامتنها ، والمناقضة في كثير من الاحايين لأراء ارسطو وسواه من فلاسفة اليونان كما يظهر عند النظام .

ثانياً : التصراعية :

من المشكلات التي عرضت للإسلام كما عرضت للتصراعية من قبل ، مشكلة التشبيه والتنزيه ، والجبر والاختيار ، والرجعة ، وربما اضفنا مقارنة (الكلمة)

(١) خطط المقرئ . ج ٤ ص ١٨٤

(٢) نيجرج - مقدمة (الانتصار) ص ٥٨

(٣) احمدامين - فجر الاسلام ص ٢٩٩

بمشكلة خلق القرآن . الى غير ذلك من المشاكل المشتركة بين الديانات . وقد يحلو لبعض المستشرقين المسيحيين ان يردوا - في تمسك احيانا - نسوة هذه المشكلات في الاسلام الى تأثيرات نصرانية محضة . اذ يقول دي بور^(١) : غير أننا لا نخطئ الصواب اذا قلنا ان اخذ لاط المسلمين بالنصارى وتلقيهم العلم عنهم في المدارس كان له عظيم الاثر ونحن نجد بين مذاهب المتكلمين الاول في الاسلام وبين العقائد النصرانية شهاً قوياً لا يستطيع معه احد ان ينكر ان بينها اتصالاً مباشراً .

ويقول في موضع اخر بالنسبة للمعتزلة : « لكن الديانة التي كانت اثرها في الاعتزال اكثر من اثر غيرها في المسيحية »^(٢) .

ويقرر ماكس هورتن في تحيز ظاهر واضح ان علم العقيدة المسيحية او علم الكلام المسيحي في الشرق يؤكد قبل كل شيء الاختيار الانساني ، ومسؤولية الانسان الكاملة في تصرفاته .. ولما كانت أدلة هذا الرأي مقنعة للأحرار المسلمين (رجال الاعتزال) رأوا من انفسهم لا محالة اتباعه^(٣) .

هذه هي العلاقة العامة بين بعض الآراء النصرانية وعلم الكلام وبعض مباحثه . اما العلاقة الخاصة بالمعتزلة ، فإن هناك شخصيات واتجاهات في النصرانية تحددها . والمؤرخون الاسلاميون يميلون - كما ذكرنا - إلى (اتهام) المعتزلة بالاخذ عن النصارى ، ويؤيدهم المستشرقون تأييداً غير خالص لوجه الله والعلم .

ويقارن الكثيرون بين المعتزلة والمذهب النسطوري ، الذي نشأ في المشرق ،

(١) تاريخ الفلسفة في الاسلام . ص ٩٤

(٢) نفس المصدر ص ٢٢

(٣) فلسفة الاسلام ص ٢٠١ ط ميونيخ سنة ١٩٢٤ م ٦ - نقلاً عن الجانب الالهي من التفكير الاسلامي . وكثير من المستشرقين يحاولون - بكل الوسائل - ارجاع الفضل في اي تفكير اسلامي الى المسيحية نقيضاً لاصالة الفكر الاسلامي وقيمه الكبرى .

لما فيها من تحرر ودعوة لسيطرة العقل وتحكيمه .
كما انهم يشيرون الى تأثير شخصيات مسيحية من امثال يحيى الدمشقي
وتيودور أبي قرة .

جاء في (الملل والنحل) أن : « اضافة نسطور الى النصارى كاضافة
المعتزلة الى هذه الشريعة ^(١) » ، قال : ان الله واحد ذو اقانيم ثلاثة ، الوجود
والعلم والحياة ، وهذه الاقانيم ليست زائدة على الذات ولا هي هو . واشبه
المذاهب بذهب نسطور في الاقانيم أحوال أبي هاشم من المعتزلة ، فانه يثبت
خواص مختلفة لشيء واحد ^(٢)

وكان ليحيى الدمشقي-مستشار معاوية ويزيد- اتصال وثيق بالمتكلمين ^(٣)
حتى ألف كتاباً للرد على حجاج شيوخهم . وكان يقول في محاوراته : اذا قال
لك العربي كذا وكذا .. اجبه بكذا .

كما ان اتصالات تلميذه تيودور ابي قرة بهم معروفة مشهورة . جاء في
(نفح الطيب) انه حدث مناظرة بين العتابي وابي قرة في المسيح عليه
السلام .

وجاء في (الاغاني) ان اعشى بكر اخذ القول في القدر عن العباديين
نصارى الحيرة ، لقنوه اياه حين كان يأتهم ليشترى الخمر .

وذكر المقرئ في (خططه) ان اول من تكلم في القدر هو معبد الجهنبي
المتوفي سنة ٨٠ هـ . اخذه عن نصراني اسمه ابو يونس سنسويه (أو سوسن)
الاسواري .

(١) الملل . ج ١ ص ٣٥

(٢) نفس المصدر ص ٣٦

(٣) أعنى المهتمين بالجدل الديني . اذ لم يكن « المتكلمون » - نسبة الى « علم الكلام »
قد تميزوا بعد .

وروى ابن قتيبة ان غيلان الدمشقي اكبر داعية للقدر - وقد اخذ عنه
واصل - كان قبطياً واسلم ويسميه (غيلان القبطي) .

والحق ان الشبه بين ما عاجله المعتزلة وعاجله يحيى الدمشقي ليس وليد
الصدفة ، في مسائل القدر والارادة وحرية الانسان .

كان الدمشقي يقول بفعلين : جبري ، ليس للإنسان سلطان فيه وهو من
الله . واختياري ، يستحق الانسان عليه المدح والذم وهو باختيار . وكان
يقول ان الله لم يرد الحشر ولا يرضاه .

ويرى ان الإنسان يجب ان يتمتع بحرية الإرادة لأنه حيوان عاقل مزود
بالعقل الذي يميز به بين الاشياء وبالقدرة على العمل ... يضاف الى هذا ان
افعال الانسان تستحق المدح والذم ، ولا يمكن ان تكون كذلك الا اذا كان
الانسان حراً في اختيارها . ان حرية الارادة اعظم ما وهب الله عباده ،
فاذا انكرناها عليهم كان ذلك منتهى السخف (١) .

وهذا هو رأي المعتزلة في تبرير التكليف والعقاب والثواب بالضبط ،
يتفقون فيه مع يحيى ، او يتفق فيه معهم ، فالسألة لا تخلو من تأثير وتأثير
على اية حال .

لكن .. هل هو تأثير كامل مطلق ؟ ..

كلا بلا ريب . فان الأمر لا يبدو ان تكون هذه البيانات - ومنها
المسيحية - كانت تقترح على المعتزلة موضع النزاع فقط . اما نشأة هذه
المشكلات الاولى فاسلامية بحثة - كما يرى احمد امين (٢) . اي ان التأثير كان
في الطريقة والمنهج ، أما صلب الموضوع فيطراً لكل جماعة انسانية متدينة
(أعني ذات دين) كما يرى الدكتور محمد البهي (٣) . تعالجه بعد ذلك في

(١) زهدي جار الله في كتابه (المعتزلة) ص ٢٩

(٢) ضحى الاسلام - ج ١ ص ٤٦

(٣) الجانب الالهي من التفكير الاسلامي .

نطاقها الخاص ومن زاويتها الخاصة ، وان اتفقت مع غيرها في الرأي كانت الاتفاق غير مستغرب .. اذ العقل البشري واحد كما يرى المعتزلة انفسهم .

ثالثاً : اليهودية ،

ان صلات اليهود بالمسلمين ضاربة بيجورها من قديم .. ولقد لاقى الرسول الكريم منهم عنفاً كبيراً وعناء اكبر ، لما واجهوه به من جحود ونكران ومحاربة . وكانوا - وهم جيرانه في المدينة - يجادلونه ويحاورونه ويناقضونه أيضاً .

وكانت آيات كثيرة من القرآن الكريم ترد عليهم ، أو تبين انحرافهم ، أو تسرد تاريخهم . وكان طبعياً ان يحتك المسلمون بهم ، عن طريق الجدل والخصام ، وان تتم صلات .

يقول الدكتور علي سامي النشار : « قابلت اليهودية الاسلام اول نشأته على حدود يثرب واشتبكت معه اشتباكات عقلية عنيفة . جادل الوحي اليهود في المدينة وناقشهم مناقشة حادة . وعندما فر اليهود الى الشام ، واستولى المسلمون عليه كما استولوا على اليمن ، بدأت منذ ذلك الحين مجادلات عنيفة بين علماء الديانتين ^(١) .

ونحن لا ننكر اطلاقاً ان اليهود ساعدوا على قيام علم الكلام بما ادخلوه من عقائد مختلفة واحاديث موضوعة دعت شيوخ المعتزلة الى مناقشة هذه العقائد وانكار هذه الاحاديث ^(٢) .

فاليهود اذن ساهموا في نشأة علم الكلام باضطرارهم شيوخ المسلمين - وفي مقدمتهم المعتزلة - الى معارضتهم وجدالهم ومناقشتهم والرد عليهم . وبالنسبة للمعتزلة ايضاً - وكما يورد زهدي جار الله - كان لليهود بلا

(١) نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام - ج ١ ص ٤٠ ط ثانية

(٢) نفس المصدر ص ٤٨

شك بعض الاثر في ظهور المعتزلة ، ويظن انهم هم الذين نشروا مقالة خلق القرآن ، فعبيد بن الاعصم - عدو رسول الله ﷺ عند ابن الاثير قال بخلق التوراة ، وابن اخته طالوت اول من صنف في خلق القرآن . وعند الخطيب البغدادي ان والد بشر المريسي - المعتزلي - كان يهودياً . وعند ابن قتيبة ان اول من قال بخلق القرآن هو المغيرة بن سعيد العجلي ، وهو من اتباع عبدالله بن سبا اليهودي ، الذي لعب دوراً كبيراً جداً في انحرافات الشيعة ونشأة الغلاة منهم ، مؤلهة علي بن ابي طالب .

والحقيقة ان نفس المشكلات التي عاجلها المعتزلة - وعلماء الكلام بصفة عامة كل من وجهة نظره - كانت معروفة لدى علماء اليهودية . مشكلات التشبيه والتنزيه ، والجبر والاختيار ، وحق الرؤية والرجعة وما مائلها . بل بان التشبيه فيهم طباع - كما يقول الشهرستاني .

بل يذهب البعض الى ان التسمية نفسها (المعتزلة) ترجمة حرفية لاسم إحدى طوائف اليهود المتحررة وهي طائفة الفريسيين او (الفروشم) PHARISEES التي تعني بالانجليزية SEPARATED المنفصلين او المعتزلة . ولعل اليهود الذين اسلموا سموا المعتزلة بهذا الاسم لما وجدوا بين الطائفتين من تقارب في الافكار والآراء .

ويقارن الشهرستاني في معرض حديثه عن القدر عند اليهود فيقول : « واما القول في القدر فهم مختلفون فيه حسب اختلاف الفريقين في الاسلام . فالربانيون منهم كالمعتزلة فينا والقراء كالمجبرة » (١)

لكن ..

هل من الضروري القول بأن المعتزلة - وغيرهم من مفكري الاسلام - أخذوا آراءهم عن سواهم من الفلاسفة والنصارى واليهود ؟ ..

(١) الملل والنحل - ص ١٣٢ ج ١

طبعاً هذا غير معقول ، فان المسألة لا تعدو نطاق التأثير المحدود في سبيل ومنهج وميدان المعالجة . أما صلب الموضوع ، ونتائجه ، فإسلامية بحتة ؛ بدليل وقوف المعتزلة في وجه الملاحدة والنصارى واليهود والرد عليهم بكل قوة وعنف وحرارة ، مما حفظ للإسلام هيئته وصلابته .

والاتفاق - في بعض الجوانب - بين النساطرة والفريسيين من جهة وبين المعتزلة من جهة أخرى ، لا يعني بالضرورة تتلمذهم لهم ، بقدر ما يعني ان ظهور هذه الطائفة (الرجال الاحرار او العقلين) ضرورة دينية واجتماعية وتاريخية مرحلية في كل دين وعقيدة .

ومسائل القدر ومحاولة تحقيق حرية الانسان ، والبحث في الحرية الانسانية ، ينشأ بحسب ضرورة فلسفية للعقل الانساني - كما يرى مكدونالد (١) .

ويرى د. أبو ريدة ان أحداً لا يستطيع ان ينكر أن الدولة الاسلامية قد شملت أمماً بأكملها بما لها من علوم أو فلسفة أو دين ، وكان الفكر الاسلامي وليد الاتفاق أو التمازج بين الاسلام وما عداه . واذن فقد تأثرت الثقافة العربية بما أحاط بها أو وصل الى أهلها من الثقافات الاجنبية ، وهذا امر طبيعي في كل ثقافة . (٢)

(١) هامش (تاريخ الفلسفة في الاسلام) ص ٩٤

(٢) ابراهيم بن سيار النظام ؛ وآراؤه الكلامية والفلسفية . ص ٧٨

غاية المفصلة من الاتجاه العقائدي

في علم الكلام

غاية المعزلة من الاتجاه الصفاي في علم الكلام

بعد أن بلغ رسول الله ﷺ دعوته ، ثم لحق بالرفيق الأعلى . وبعد أن فرغ المسلمون أو قادوا من فتوحهم وغزواتهم ، كان طبيعياً أن تدخل عوامل جديدة في توجيه الافكار الدينية ، وربما تحريفها . وكان للبلاد المفتوحة (كفارس وبلاد كثيرة انتزعت من سيطرة الروم) اثر واضح في نشأة فرق متعددة تدعو دعوات منحرفة خارجة عن الاسلام ، وان كانت تلتصق بستاره وتتخفى في ردائه . منها ما قام لفرض سياسي ، كفلاة الشيعة والرافضة ، والمشبهة والقرامطة والباطنية ، ومنها ما هدف إلى افساد الاسلام وتفسيره كالفرق المنبثقة عن اليهودية والثنوية والمأنوية والسمنية والصابئة وغيرها .. وكلها تهاجم الاسلام ومعاقله بعنف وضراوة ، وتحاول التشكيك فيه وفي قيمته كدين متكامل ، حتى سادت موجة من الزندقة والاحاد والفسق والانحلال الخلقي نتيجة للبعد عن منبع الدين الصافي التقي .

وكان من الواجب ، والضروري ، أن تنهض طائفة بمعبء الدفاع عن الاسلام ، ورد كيد الكائدين . ووجد في المعزلة خير من قام بهذا الدور (التطهيري) المجيد ، ضد جميع الفئات تقريباً .

وماذا يكون السلاح في هذه المعركة الحادة الضارية ؟ ..

أهو القرآن والسنة والحديث وحدها ؟ ..

إنها لا تكفي في مجال الاقناع والجدل .. لا لضعف فيها .. وإنما بالنسبة للمجادل الذي لا يؤمن بهذا القرآن وهذه السنة وهذا الحديث ، ولا يسلم بقضاياها ..

فليكن السلاح إذن العقل البشري وحده .. العقل الذي ميز به الانسان عن الحيوان .. العقل الذي لا جدال بعد حجته القاطعة .

وهكذا كان الاتجاه العقلي سائداً علماء المعتزلة . بحكم طبيعة النقاش ، وبحكم تكونهم الثقافي . وبحكم إيمانهم المتحرر بالعقل وقيمته .

وساروا في هذا التيار ، حتى وجدوا انفسهم حملة لوائه والمعروفين به ، وحاميه دون منازع .

إن علم الكلام كما يعرفه ابن خلدون اجمالاً ليس سوى (علم يتضمن الحجاج عن القواعد الأيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة^(١)) .

لكن المعتزلة والحق يقال - نادوا في هذا الاتجاه حتى قلبوا التعريف فجعلوا السنة والعقائد في خدمة العقل .. لا العكس .. وكان هذا لفرط اعتزازهم به واعزازهم له من جهة ولطبيعة المهمة من جهة أخرى . وحدث هذا بتطور الأمر عندهم؛ فقد كانوا في البداية وهم من خواص اهل العلم والنظر، واجهوا هذا الأمر الخطير - التشبيه والتجسيم لدى غلاة الشيعة ومجسمة خراسان واليهود - يحطم عقائد المسلمين ، فلجأوا إلى القرآن وإلى السنة الصحيحة يتأملونها ثم يضعون فكرتهم عن الله^(٢) .

(١) المقدمة ص ٤٥٨

(٢) نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ص ٣٢٧

الدفاع عن الاسلام إذن ، ضد اعدائه من ابناء الديانات الاخرى ، وضد متبعيه المنحرفين ، هو غرض المعتزلة وهدفهم ، وما عملوا لغير هذا قط . وكانوا أول من امتشق حسام الكلام ، وسيف العقل . يناقحون به عن الدين القويم . فإن ثمّ ما يبرر القول مثلاً بأن دفاع النظام كان الى حد ما من وجهة نظر فلسفية عقلية ، وان كان الباعث الاكبر عليه الدين^(١) .

يقول نيرج في مقدمة (الانتصار) بعد سرد من عنى المعتزلة بالرد عليهم : ولم يسبقهم في الاسلام أحد الى الرد بهذا المقدار^(٢) .

أما الحياط - المعتزلي الكبير - فانه ، في مجال رده على ابن الروندي ، يتوعده ، ويبين فضل المعتزلة في الدفاع عن الاسلام فيقول : « وويل صاحب الكتاب .. من الذب عن التوحيد لولا ابراهيم (النظام) واشباهه من علماء المسلمين الذين شأنهم حياطة التوحيد ونصرتة والذب عنه عند طعن الملحدين فيه ... لأنهم (المعتزلة) المعنيون بالتوحيد والذب عنه من بين العالمين (ص ١٣) ... وهل على الارض أحد رد على أهل الدهر الزاعمين بأن الجسم لم يزل متحركاً وحركاته محدثة سوى المعتزلة ؟ (ص ١٧) ... ثم أعطاك ان المعتزلة قد غاظت هذا الماجن (ابن الروندي) بنصبها للملحدين وإفسادها لمذاهبهم ووضعها الكتب عليهم (ص ٢٣) » :

هذه لمحة خاطفة ونظرة عجلى إلى موقف الدفاع العقلي الذي اتخذته المعتزلة من الاسلام ، وهو موقف لا ينكره عليهم أحد من المنصفين ، وان كان بعض خصومهم من السلفيين قد حاولوا تشويه الصيغة الرائعة لهذا الموقف .

(١) ابراهيم بن سيار النظام - ص ٦٨ ، انظر مثلاً رده الفلسفي على الدهرية لاثبات بداية العالم وتناهيه - دليل القطع في الكواكب . وردّه على المنانية والديصانية ص - ٨٠ .
(٢) نشأة الفكر الفلسفي ... ص ٥٤ - ٥٧ .

وكلنا يعرف كيف كان المعتزلة حائزي قصب السبق في ميدان المناقشة
عن الاسلام ، حق كان الرشيد - وهو الذي اضطهدهم وسجنهم - يلجأ اليهم
حين اليأس ليزودوا عن حمى الاسلام .

هم وقفوا ضد كل الطوائف والفرق ، وقطعوا ، وقتلوا عليها ، وكان
رجالهم من أمثال النظام وابن الهذيل مضرب المثل في قوة الحججة ، ومتانة
البرهان ، وصلابة الدليل .

وليس هذا هو المجال الذي ينبغي علينا فيه الاستطراء في الموضوع .
فلنحاول الآن أن نلقي ضوءاً على بعض المشكلات التي عالجها المعتزلة ، ونخص
منها المشكلات العقلية المتصلة بالدين ، او بتعبير آخر المشكلات الدينية
ذات الصبغة العقلية .

شکلات عقلیہ - دینیہ

مشكلات - عقلية - دينية

الأصول الخمسة - الجبر والاختيار - العقل والسمع
الحسن والقبح - الصلاح والأصلح - التكليف واللفظ
إرجاع مقالات المعتزلة إلى أصولهم الخمسة

لعله من الأنسب قبل بداية الحديث عن المشكلات (العقلية) التي عالجها المعتزلة وتعرضوا لها ، ان نشير في يماز الى الاصول الخمسة او المبادئ التي ارتكز عليها مذهبهم ، والتي هي - كما يقول الخياط - ليس يستحق اسم الاعتزال أحد حتى يجمع القول بها .

وذلك لأن ارتباط مقالاتهم - فيما بعد - يعود إلى هذه الاصول مجتمعة أو متفرقة ، وخاصة - فيما يتعلق بالنزعة العقلية - اصلاً : العدل ، والوعد والوعيد .

ونحن نحب أولاً أن نلاحظ أن الشهرستاني يثبتها أربعة أصول بدل خمسة ، وهي :

أصل التوحيد (ويندرج تحته مشكلات الصفات : كالكلام والارادة والسمع والبصر والرؤية والتشبيه) واصل العدل (ويشمل : افعال المباد ، الصلاح والأصلح ، واللفظ) ثم الوعد والوعيد (ويتضمن : العوض والخلود في النار بالكبيرة) واخيراً السمع والعقل (ويعني بأصول المعرفة ، الحسن والقبح ، والتكليف) .

لكن المشهور عن أصول المعتزلة انها خمسة ، هي : (١)

١ - القول بالتوحيد ، وفيه ان الله واحد لا شريك له من اي جهة كان .

٢ - القول بالعدل ، وفيه ان الله لا يحب الشر والفساد .

٣ - القول بالوعد والوعيد ، وفيه ان الله صادق في وعده ووعيده .

٤ - القول بالمنزلة بين المنزلتين وفيه ان صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ولكنه فاسق .

٥ - الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفيه تكليف المؤمنين بالجهاد وإقامة حكم الله .

ويلاحظ المرء أن اصل المنزلة بين المنزلتين ذو أهمية قصوى في ظهور المعتزلة ، حتى ان الكثيرين يذهبون الى القول بأنهم ما سُمتوا معتزلة الا لقولهم باعتزال مرتكب الكبيرة المؤمنين والكافرين ، في منزلة وسط . كما ان اصل التوحيد لعب دوراً كبير في اتجاهات المعتزلة من حيث رغبتهم المطلقة في تنزيه الباري جل وعلا ، مما ادى بهم إلى القول بخلق القرآن ونفي الصفات وغيرها . وإن كنا نلاحظ في نفس الوقت ان مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكاد لا ينال حظه من النقاش والاهتمام وربما يرجع هذا إلى انه مبدأ عام يشترك فيه مع المعتزلة المسلمون جميعاً . (ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) (٢) (كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) (٣) .

نود ان نذكر أولاً كلمة عن طبيعة المشكلات التي عولجت من قبل المعتزلة وغيرهم من علماء الكلام ، مستخلصين منها ما يدور حول بحثنا من

(١) مقدمة كتاب (الانتصار) ص ٥٠ - ٥١

(٢) سورة : آل عمران آية : ١٠٤ .

(٣) سورة : آل عمران آية : ١١٠ .

مشكلات عقلية ، أو يفلب عليها الطابع العقلي ، وهي التي تهمننا في هذا الموضوع الآن .

فلقد اصطدم المعتزلة بخصومهم من مختلف الاتجاهات ، في جميع المجالات الكلامية تقريباً ، ولا زالت آثارهم التي اثبتوا هؤلاء الخصوم شاهدة على هذا الامر حتى الآن . هم تكلموا في الاصول والفروع ، وناقشوا جميع الآراء والمذاهب التي ظهرت في عصرهم ، دينية ، وسياسية ، واجتماعية ، وفلسفية . ملبسين جدالهم ثوب العقل ، ومتسلحين به ومتخذين مرشداً لهم في طريقهم الشاق الطويل .

وقد ظهرت منهم منذ اول أمرهم نزعة الى الاعتماد على العقل والى اقامة سلطان له ، الى جانب النصوص المنزلة . فحكوه في آرائهم بالاجمال في معرفة الله وصفاته وافعاله ، وفي الحسن والقبح في الافعال وغير ذلك ، وظهر منهم الاستقلال في الرأي في كثير من المسائل ، ولذلك يسميهم الباحثون الاوربيون « اصحاب المذهب العقلي Rationalists » او « المفكرين الاحرار » ... وتتردد تسميتهم بالعقليين في كتابات كثير من الباحثين الاوربيين (١) .

ولنذكر كما بينا مراراً ان الموضوعات التي تعرض لها المعتزلة هي بصفة عامة (موضوعات انسانية) شاملة بمعنى انها تعرض لكل عقل سليم . لكن طريقة المعالجة والتفصيلات هي التي تختلف بطبيعة الحال وتلبين .

الجهل والاختيار :

من أوائل هذه المشكلات (الازلية) التي خاض فيها شيوخ المعتزلة وكان لهم فيها موقف واضح محدد ، هي مشكلة الجهل والاختيار .

(١) د. أبو ريده (ابراهيم بن سيار النظام ص ٦٧ .

هل الانسان مجبور على فعل ما يفعل ؟ ام هو غير في فعله له حرية التصرف كيف يشاء ؟ .. أي هل نحن نطلق للإنسان حرية في العمل والفعل ، ام هو مقيد بقدر مكتوب لا يحيد عنه ولا ينبغي قيد شعرة ؟

هذه مشكلة دوخت من بحثوها ، وبرزت في كل الديانات والثقافات وقالت حظاً من النقاش والجدل ، وكان الفوز سجلاً بين المذهبيين . في اليهودية والنصرانية مثلاً ظهر الاتجاهان ، وتبعهما اتباع وانقسمت الديانتان فرقتين رئيسيتين : أهل الجبر ، وأهل القدر . أي الذين يجعلون للإنسان قدرة واستطاعة على التصرف الحر غير المقيد .

وكذلك حدث في الاسلام ، برزت الطائفتان وتحاصمتا وتصارعتا . وكان يمثل المقاتلين بالجبر خير قتييل الجبرية الخالصة من اتباع الجهم بن صفوان ، وأهل السنة من السلفيين نوعاً ما ، وبصور المنادين بحرية الانسان المعتزلة ومن لف لفهم .

ولقد سمي المعتزلة بالقدرية ، يريد خصومهم النيل منهم والخط من قيمتهم ، وذلك لما روي من أحاديث شريفة تدم (القدرية) ذمّاً شديداً ، من مثل (القدرية مجوس هذه الامة) ، (لعنت القدرية على لسان سبعين نبياً) ، (القدرية والمرجئة لعنتا على لسان سبعين نبياً) ..

وكان المعتزلة يتصلون من هذا الاسم محاولين الصاقه بخصومهم لأنهم - في رأيهم - أولى به منهم ، ما داموا يقولون بالقدر خير وشره من الله . لكن التسمية لم تلبث أن لبستهم وعرفوا بها على مر العصور .

وكان لموقفهم التحرري من احترام ارادة الانسان ، وتقديس عقله ، ما دفعهم الى ان يتفقوا على ان العبد قادر خالق لأفعاله خيراً وشرها ، مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً في الدار الآخرة . (١)

(١) الملل والنحل - للشهرستاني ج ١ ص ٦٢

أما المشكلة نفسها فقد كانت عرفت منذ بداية المعتزلة وأثيرت، وإن كان الجدل فيها لم يتخذ مظهره الفلسفي الدقيق إلا بعد تطور فكرهم ونضوج آرائهم بعد ذلك. وكانوا في بداية الأمر ينظرون إليه ببساطة ووضوح، ويرون في حرية الإنسان تبريراً للمسؤولية والمحاسبة. وكان أصل بن عطاء، زعيمهم الكبير، مثلاً يقول: «إنه لا يجوز أن يريد الله من العباد خلاف ما يأمر، ويحتم عليهم شيئاً ثم يجازيهم عليه». فالمبدأ هو الفاعل للخير والشر والايمان والكفر والطاعة والمعصية، وهو المجازي على فعله. والرب تعالى أقدره على ذلك كله^(١)،

القضية إذن أن المعتزلة جعلوا الحرية الإنسانية شرطاً لتحمل المسؤولية وتبرير التكليف والحساب. وبدون هذه الحرية يصبح ما ذكرنا شيئاً لا معنى له؛ إذ كيف يجبر الله عباده على فعل قدره هو عليهم ثم يحاسبهم لأنهم فعلوه؟!

وهذا تساؤل فيه نصيب كبير من الصحة والحق. وللمعتزلة مباحث لطيفة في معنى الفعل ومدى نصيب الإنسان منه. أعني ما حدود الفعل الإنساني؟.. هل هو مقيد أم مطلق؟.. واختلّفوا فيه، كما اختلفوا في الفعل المتولد وما نتج عن القول بالتولد، حق كان يصطدم شيوخم ببعضهم بعضاً، ويكفر بعضهم بعضاً في مثل هذه الموضوعات. (٢).

فمعر بن عباد السلمي مثلاً قال: ليس للإنسان فعل سوى الإرادة

(١) المصدر السابق - ص ٦٦.

(٢) من مظاهر الحرية الفردية لدى المعتزلة اهتمامهم بالنقد الذاتي، وعدم تقيدهم بتقليد شيوخم، ونزوعهم إلى تحقيق الآراء وتمحيصها، وهذا يتضح للتبصير لآراء علمائهم ومذاهبهم.

مباشرة كانت او توليداً^(١) . بينا يوافقه ثمانية بن أشهر النميري في القول بأن لا فعل للانسان الا الارادة ، لكنه يضيف ان ما عداها فهو حدث لا يحدث له^(٢) . ويرى الجاحظ أيضاً انه ليس للعبد سوى الارادة وتحصل أفعاله منه طباعاً^(٣) . هذا بينا اتفق الجبائي وابنه ابو هاشم على القول بإثبات الفعل للعبد خلقاً وابداعاً^(٤) .

لقد كانت القضية من البساطة بحيث انها لم تكن تحتاج لطويل جدال ؛ الانسان مكلف لأن له عقلاً ، فهو حر في تصرفه فيحاسب عليه - وهو يدرك هذا - فيعاقب او يثاب .

حق اذا ما حاول أهل السنة اتهام المعتزلة بأنهم يجعلون الله شريكاً بقولهم ان الانسان فاعل على الحقيقة ، دفع هؤلاء التهمة وحاولوا قلبها على خصومهم بقولهم : ان فعل العبد عندهم متميز عن فعل الله جل وعز باوصافه وأحكامه . والشركة - هكذا يقولون - تثبت في الجبر الذي لا يحصل فيه تمييز !! (فكأنما هم يرمون الى اثبات أن فعل العبد مستقل عن فعل الله وإذن فلا شركة ، لكن الشركة تأتي من القول بأن أفعال العبد رهينة بأفعال الله) .

لكن خصوم المعتزلة من الدقباطيين الجزميين كانوا يرون في هذا القول خروجاً عن الدين ونبواً عن الصراط القويم ، فيقول أبو مظفر الاسفرايني مستنكراً : ان من افطع ما صنعوه نسبتهم التقدير الى انفسهم لا الى خالقهم^(٥) ويقول البغدادي - وهو من ألد خصومهم - في (الفرق بين الفرق) .

(١) الملل والنحل ص ٩٩

(٢) الملل ص ١٠٦

(٣) الملل ص ١١٢

(٤) الملل ص ١٢٠

(٥) التبيين في الدين ص ٨٤

« ومنها قولهم جميعاً بأن الله تعالى غير خالق لا كساب الناس ولا لشيء من أعمال الحيوانات ، وقد زعموا أن الناس هم الذين يقدرون على اكسابهم ، وإن ليس لله عز وجل في اكسابهم ولا في أعمال سائر الحيوانات صنع ولا تقدير . ولاجل هذا القول سماهم المسلمون قدرية^(١) » .

والحق أن في هذا الكلام تحريفاً وتجنباً على المعتزلة وأرائهم . فالمعتزلة لم يقولوا إلا بأن الله خلق الإنسان واعطاه حرية التصرف والفعل . تماماً كما يسمح الملك لعبده أو خادمه بالتصرف في قصره ، فإن أحسن أثابه وإن أساء عاقبه . كذلك هم يفرقون بين الفعل (الإنساني) الذي يستحق المدح والذم ، والفعل (الإلهي) الذي لا دخل للإنسان فيه ، كالولادة والموت وغيرهما . ولم يكن - في بعض الأحيان - الفعل الإنساني عندهم مطلقاً ، فقيده النظام بالخاطر ، وهو الداعي أو المصلحة أو المانع^(٢) .

ولا نستطيع - من ناحية أخرى - انكار أن بعضهم قد تمادى في القول بأن للإنسان قدرة على الخلق والفعل ، حتى خلق الأرايح والطيوم ، عن طريق القول بالأفعال المتولدة . لكن مرجع هذا كله هو الإيمان بالمقل البشري ، والتأكيد على قيمته والمغالاة في احترامه وتقديسه .

وعلى النقيض من المعتزلة وقف أهل السنة يقولون : إن كل ما جرى على العبد من المعاصي فهو خلق من الله تعالى ، وهو عدل منه سبحانه ومعصية من العبد . وكل ما جرى من العبد من الطاعات فهو خلق من الله تعالى ، وهو من الله فضل . وما من العبد طاعة ومعصية ومن الله فضل وعدل^(٣) .

(١) الترق بين الفرق ص ١١٤ - ١١٥

(٢) إبراهيم بن سيار النظام - آراؤه الكلامية الفلسفية ، ص ١٧١ - ١٧٣

(٣) التبصير في الدين ، للاسفرافيني ص ٨٦

وبعد ان يورد ابو مظفر الاسفرايني الاحاديث والقصص عن الرسول ﷺ وعن علي وابن عباس (رض) التي تؤيد رأي اهل السنة في الايمان بالقدر خيره وشره من الله ، يشن هجوماً قوياً على المعتزلة الذين يسميهم (القدرية) ذاكرين انهم - رغم هذا - يعدون في فرق الاسلام عدا فرقتين منهم .
ولعل خير تلخيص لرأي اهل السنة هذه الابيات التي يوردها ابو مظفر الاسفرايني عن الامام الشافعي رضي الله عنه :

ما شئتَ كان وإن لم اشأ وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن
خلقت المباد على ما علمت ففي العلم يجري الفتي والمسن
على ذا مننت وهذا خذلت وهذا اعنت وذا لم تمن
فهذا سعيد ، وهذا شقي وهذا قبيح ، وهذا حسن

ويعلق ابو مظفر بأن قوله « ففي العلم يجري الفتي والمسن » رد على المعتزلة في جميع ما يوردونه من الشبه في التعديل والتجوير ^(١) .

الحسن والقبح :

لعلنا لا نجاوز الحقيقة إذا قلنا أن أشهر ما عرف به المعتزلة وتنوّل عنهم ، ورد عليهم فيه ، قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين ، أي ان الشيء او الفعل يحمل صفة الحسن او القبح في ذاته ، ولا يكون موصوفاً بها لعلة خارجية ، كالامر او النهي .

هم يعتقدون ان الشر موصوف بذلك لأنه شر في نفسه ، ولذا نهى الله عنه في الديانات المنزلة ، والخير خير في نفسه ، ولذلك امر به الله . على العكس مما يقول به اهل السنة من ان الشرع هو الذي يبين لنا الحسن من القبيح ، او الحلال من الحرام ، بأن امر بفعل الحسن ونهى عن فعل القبيح . ولو اراد ان

(١) نفس المصدر ص ٨٨

يحمل الحسن قبيحاً - او العكس - لفعل ، وكان هذا صواباً منه وعدلاً .
فالموقف إذن بين اهل الاعتزال واهل السنة موقف تضاد وصادم . ومن
هنا كانت هذه الكتب التي صنفها اهل السنة والاشاعرة ينقضون هذا المبدأ
ويعارضونه ، وتلك التي سطرها المعتزلة يدافعون عنه ويدللون على صحته .
ماذا يرى المعتزلة في التحسين والتقبيح العقليين ؟ .
ولماذا نادوا بهذا الرأي ؟ ..

انهم نادوا به لايمانهم المطلق بالعقل ، وبأنه هو الذي يؤدي الى معرفة الله والى
معرفة المحبوب من الأعمال . ويعتقد الدكتور أبو ريدة أن من أكبر العوامل
التي دعت المعتزلة الى هذا الرأي بالإضافة الى ايمانهم بسلطان العقل في المعارف
والواجبات ، تفرقتهم بين علم السمع وعلم العقل ، وذلك بتأثير الثقافة
الفلسفية بالأجمال (١) .

هم قالوا بالحسن والقبح العقليين لأنهم فصلوا بين علم السمع - الذي هو الكتب
الالهية المنزلة على الرسل - وبين علم العقل - الذي لا يعتمد على شيء سوى
نفسه . ولفرط ثقتهم في هذا العقل أوجبوا عليه معرفة الله سبحانه وتعالى
حق قبل نزول الوحي وبعث الرسل ، بل تهادى أبو الهذيل العلاف فقال ان
على المكلف معرفة الله حق قبل ورود الخاطر .

هم يوجبون معرفة الحسن والقبح بالعقل ، ويوجبون كذلك فعل الحسن
 واجتناب القبح ايضاً (٢) . كان أبو الهذيل مثلاً يقول في المكلف قبل ورود السمع
انه يجب عليه ان يعرف الله بالدليل من غير خاطر ، وان قصر في المعرفة
استوجب العقوبة ابدأ ، ويعلم ايضاً حسن الحسن وقبح القبح ، فيجب عليه

(١) ابراهيم بن سيار النظام . ص ٨٨

(٢) الملل والنحل ص ٦٣

(٣) الملل والنحل ص ٦٦

الاقدام على الحسن كالصدق والعدل، والاعراض عن القبيح كالكذب والجور^(١) وهذا لمعري منتهى الثقة في العقل الانساني والاعتداد به ، والتمسك بسلطانه وقوته .

لكن النظام - تلميذ أبي الهذيل - رغم أنه يوافق استاذَه في انه اذا كان المفكر قبل ورود السمع عاقلاً متمكناً من النظر ، يجب عليه تحصيل معرفة البارى تعالى بالنظر والاستدلال، ويوافقه في القول بتحسين العقل وتقييحه في جميع ما يتصرف فيه من افعاله ؛ الا انه يرى انه لا بد من خاطرين : احدهما يأمر بالاقدام والآخر بالكف ليصح الاختيار^(٢) .

ويذكر الشهرستاني ان الجعفرين - جعفر بن بشر وجعفر بن حرب - يقولان ايضاً بالتحسين والتقييح العقليين ، كذلك يفعل ثمانية بن أشرس ، غير أنه زاد عليهم فقال : من الكفار من لا يعلم خالفه وهو معذور . كما اتفق الجبائي وابنه أبو هاشم على ان المعرفة وشكر المنعم ، ومعرفة الحسن والقبح واجبات عقلية^(٣) .

ان المعتزلة يتخذون من التحسين والتقييح العقليين قانوناً عاماً يطبقونه حتى على الله تعالى نفسه ، بعد ان أوجبوه على الانسان . فان النظام مثلاً يرى أن الله ليس محتلب المنافع ويدفع المضار ولكن يفعله (العدل) لحسنه وشرفه^(٤) . وقد اشتهر عن النظام قوله بأن الله لا يقدر على فعل الظلم لان في هذا انتقاصاً منه تعالى .

بالاختصار أجمعت المعتزلة - إلا عباداً - على ان الله جميل الايمان حسناً والكفر قبيحاً ، بأن جعل التسمية للإيمان والحكم بأنه حسن ، والتسمية للكفر والحكم بأنه قبيح^(٥) .

(١) الملل والنحل ص ٨٥

(٢) الملل والنحل ص ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٢٠ ج ١

(٣) (الانتصار) لخياط ص ٤٢

(٤) مقالات الاسلاميين للأشعري ص ٢٧٣ ج ١

يقول الشهرستاني مبيناً موقف المعتزلة من مسألة التحسين والتقبيح العقلين : فصار المعتزلة إلى أن العقل يستدل به على حسن الأفعال وقبحها ، على معنى أنه يجب على الله الثواب والثناء على الفعل الحسن ، ويجب عليه الملام والعقاب على الفعل القبيح . والأفعال على صفة نفسية من الحسن والقبح ، وإذا ورد الشرع بها كان مخبراً عنها لا مثبتاً لها ^(١) .

وجاء في المواقف « الإيجي » ، وعند المعتزلة أن تعلق المدح والثواب والذم والعقاب عقلي . قالوا : للفعل جهة محسنة أو مقبحة ، ثم إنها قد تدرك بالضرورة كحسن الصدق النافع وقبح الكذب الضار ، وقد تدرك بالنظر كحسن الصدق الضار وقبح الكذب النافع ^(٢) .

أما القاضي عبد الجبار بن أحمد - أحد شيوخ المعتزلة المتأخرين - فإنه يقول عند الكلام في العدل : « أعلم أن الطريق إلى معرفة أحكام هذه الأفعال من وجوب وقبح وغيرها هو كالطريق إلى معرفة غير ذلك . ولا يخلو إما أن يكون ضرورياً أو مكتسباً . والأصل فيه أن أحكام هذه الأفعال لا بد من أن تكون معلومة على طريق الجملة ضرورة ، وهو الموضع الذي نقول إن العلم بأصول المقبحات والواجبات والمحسنات ضروري ، وهو من جملة كمال العقل . ولو لم يكن ذلك معلوماً بالعقل لصار غير معلوم ابداً ^(٣) .

فكأنما هو يريد القول بأن العقل لا يكمل إلا إذا عرف - من تلقاء نفسه - الحسن والقبح ، فإذا لم يعلمه بقي ذلك مجهولاً ابداً .

ثم يضيف : « أعلم أن القبيح ليس بقبيح الا لوقوعه على وجه ^(٤) أي ان الفعل يحمل صفة القبح - وكذلك الحسن - في نفسه وذاته ، وليس هو كذلك لأمر أو نهي جاء به أو عنه .

(١) نهاية الاقدام للشهرستاني ط جيوم ص ٢٧١

(٢) المواقف ، ج ٢ ص ٣٩٣

(٣) المجموع من المحيط بالتكليف ، مخطوطة ص ٨٢ ج ١

خلاصة القول أن المعتزلة أعطوا العقل قيمته الكبرى في معرفة الله قبل ورود السمع ، وسلطانة الكامل في معرفة الخير والشر والفساد والصلاح ، وقدموه على سواء - حتى على الشرع نفسه - فما موقف معارضيه في هذا الموضوع؟..

نحن نعلم أن أهل السنة والأشاعرة وقفوا منهم موقفاً متشدداً متمسكاً بالقرآن والسنة والحديث ، نابعاً من إيمانهم بالقدر خيره وشره من الله ، معتمدين على أن الله تعالى لا يعذب من لم يكلفه عن طريق الرسل . معتمدين على الآية الكريمة : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً)^(١) . فلننظر إلى آرائهم ونعرضها في إيجاز . واننا لواجدون في كتاب (نهاية الاقدام) للشهرستاني تلخيصاً طيباً لهذا الموقف .

يقول الشهرستاني : « فمذهب أهل الحق (السنة) أن العقل لا يدل على حسن الشيء وقبحه في حكم التكليف من الله شرعاً ، على معنى أن أفعال العباد ليست على صفات نفسية حسناً وقبحاً ، بحيث لو أقدم عليها مقدم أو أحجم عنها محجم استوجب على الله ثواباً أو عقاباً ، وقد يحسن الشيء شرعاً ويقبح مثله المساوي له في جميع الصفات النفسية . فمعنى الحسن ما ورد الشرع بالثناء على فاعله ، ومعنى القبيح ما ورد الشرع بدم فاعله^(٢) .

أما من حيث معرفة الله تعالى فإن الشهرستاني يبين موقف الأشعري^(٣) فيقول أنه فرق بين حصول معرفة الله تعالى وبين وجوبها فإن المعارف كلها إنما تحصل بالعقل ، لكنها تجب بالسمع .

ويضرب أهل السنة مثلاً : لو قدرنا أن إنساناً قد خلق تام الفطرة كامل العقل دفعة واحدة من غير أن يتخلق بأخلاق قوم ولا تأدب بآداب الأبوين

(١) سورة الاسراء : آية ١٥

(٢) نهاية الاقدام في علم الكلام . ص ٣٧٠

(٣) يلاحظ أن الأشعري - رغم انقلابه على المعتزلة - يتخذ موقفاً وسطاً في أغلب الأحيان

ولا تزيا بزى الشرع ولا تعلم من معلم « ثم عرض عليه امران ؛ احدهما أن الاثنين اكثر من الواحد ، والثاني ان الكذب قبيح بمعنى أنه يستحق من الله لوماً عليه ، لم يشك انه لا يتوقف في الاول ويتوقف في الثاني . ومن حكم بان الأمرين سيان بالنسبة الى عقله خرج عن قضايا المقول وعاند عناد الفضول^(١) .

ويضيف الشهرستاني معلقاً على موقف المعتزلة : قالوا وقد اخطأت المعتزلة حيث ردوا القبح والحسن الى الصفات الذاتية للأفعال ، وكان من حقهم تقرير ذلك في العلم والجهل ، إذ الأفعال تختلف بالأشخاص والأزمان وسائر الإضافات وليست هي على صفات نفسية لازمة لها لا تفارقها البتة .^(٢)

فأهل السنة يرون إذن أن تقرير الحسن والقبح خاضع للظروف والبيئة والزمان ، من بعد الشرع . ولا يسلمون بأن كل فعل يحمل قيمته في ذاته - كما يرى المعتزلة .

وأهل السنة يستدلون أيضاً على ان الشرع هو المحن والمقبح بنسخ الشرائع حتى يتبدل حظر باباحة وحلال بحرام .

من ناحية اخرى ، ذهب بعض شيوخ المعتزلة الى القول ان كثيراً من الأشياء تجب على العبد من غير أن يكون من الله تعالى فيه أمر ، مثل النظر والاستدلال وشكر المنعم وترك الكفر والكفران . وإن العبد اذا أتى بهذه الأشياء على قضية عقله دون امر ربه سبحانه ، وجب على الله تعالى ان يثيبه^(٣)

فالمعتزلة اذن يوجبون على الله أن يثيب العبد العارف الصالح لأن هذا

(١) نفس المصدر السابق ص ٣٧٢

(٢) نفس المصدر ص ٣٧٦ .

(٣) التبصير في الدين ص ٦٣ .

من عدله تعالى . بينا ينكر اهل السنة وأتباعهم هذا (القانون) ويرون ان الله جل وعلا حر في ان يعاقب أو يثيب - دون ابداء الاسباب .

المعتزلة - على الحقيقة - تمادوا في بعض الاحيان حتى جعلوا من الانسان ندًا لله تعالى في الواجبات والحقوق ، وساروا بين العبد وربّه ، حتى لم يعد هناك مجال لفضل أو تفضل ، بل هو حق يؤخذ وواجب يؤدي ؟ !!

يقول (الاعمى) في (المواقف) :

« إن القبيح - لدى اهل السنة وهو منهم - ما نهى عنه شرعاً ، والحسن بخلافه . ولا حكم للعقل في حسن الاشياء وقبحها ، وليس ذلك عائداً الى امر حقيقي في الفعل يكشف عنه الشرع ، بل الشرع هو المثبت وهو المبين . ولو عكس القضية فحسن ما قبحه وقبح ما حسنه لم يكن ممتنعاً وانقلب الامر . وقالت المعتزلة بل الحاكم بها العقل ، والفعل حسن او قبيح في نفسه والشرع كاشف ومبين ، وليس له ان يعكس القضية . » (١)

هذان هما موقفا المعتزلة وأهل السنة ، ينعنا من الاسترسال في سرد تفاصيل الخلاف وحجج كل فريق وبراهينه ضيق المجال ، والاستغناء بما أوردناه عن الشرح والتطويل .

فلننتقل إلى مشكلة اخرى - متصلة بما سبق وبما هو لاحق - وهي قضية :

السمع والعقل :

هذه القضية متصلة تمام الاتصال بفكرة التحسين والتقييح العقلين ، ومتصلة أيضاً بالتكليف ، ومتصلة ثالثاً بالديانة العقلية التي ستفرد لها قسماً خاصاً من هذا البحث باذن الله .

أما السمع فمعناه ما جاء عن طريق الرسل والكتب المنزلّة من اوامر ونواه تحدد الاحكام وتبين الحلال من الحرام .

(١) شرح المواقف ص ٣٩٣ .

وأما العقل فهو ذلك الشيء . الذي أودعه الله تعالى في الانسان وميزه به ورفعه عن سائر الحيوان والجماد ، وصار به مسؤولاً ، مختاراً ، محاسباً على ما تقدم يده .

فهل يستطيع الانسان بمقله هذا أن يستغني عن الرسل والانبياء ليعرف ما يرضى الله وما يفضبه ؟ .. وهل يكفي هذا العقل لارشاد الانسان في طريقه الى العمل للدنيا والآخرة ؟ ..

يقول المعتزلة بثقة مطلقة : نعم .. العقل وحده كاف للإنسان .
فاذا سألناهم : ما بال الرسل يبعثون ، والانبياء بين ظهرائنا من عند الله ؟ ..

قالوا : ان هذه الرسالات ليست سوى ألطاف من عند الله ليخفف بها عن عباده . فالتكاليف كلها ألطاف ، وبعثة الانبياء وشرع الشرائع وتمهيد الاحكام والتنبيه على الطريق الأصوب كلها ألطاف (١) . ولو آمن العبد بلا لطف - أي بلا رسالة - لكان ثوابه اكثر لكثرة مشقته (٢) .

المعتزلة يتفقون على أن اصول المعرفة - ومنها معرفة الله ومعرفة الخير والشر - وشكر المنعم واجبة قبل ورود السمع (٣) (أي الرحي) ... لكنهم يختلفون في التفاصيل .

فبينما نرى أبا الهذيل العلاف يوجب على المكلف المعرفة دون قيد او شرط ، نجد النظام يقول انه لا بد من وجود الخاطر الذي يبين له هذه المعرفة . هذا بينا يرى ثمامة بن اشرس أن المعارف كلها ضرورية وان لم يضطر (العبد) الى معرفة الله سبحانه وتعالى فليس هو مأموراً بها وانما خلق للعبادة والسفيرة كسائر الحيوان (٤) .

(١) المل والنحل ص ١٢١

(٢) « « ص ١٢٦

(٣) « « ص ٦٣

(٤) « « ص ١٠٦

فالإنسان الذي لم يتوصل الى معرفة الله بعقله لا تثريب عليه في رأي عامة ، وان كان قد انزله الى مرتبة الحيوان الذي خلق للمبرة . والمرجع في قوله هذا الى ان بالعقل تحصل المعرفة ، فكأن من لا يستطيع ان يعرف لا عقل له ، فهو والحيوان في مرتبة سواء . ونفس هذا الرأي يورده الاسفرايني عن ثمانية من ان المعارف لديه ضرورية ، وان من لم يعرف الله سبحانه ضرورة ليس عليه امر ولا نهي ، وان الله خلقه للسخرة والاختبار ، لا للتكليف والاختيار (١)

يقول الامام ابو حامد الغزالي - مؤيداً موقف السلف واهل السنة : ندعي انه لو لم يرد الشرع لما كان يجب على العباد معرفة الله تعالى وشكر نعمته - خلافاً للمعتزلة حيث قالوا بأن العقل بمجردده موجب (٢) .

ولعل هذه النزعة المسيطرة على اتجاه المعتزلة في كل ما تعرضوا له .. هذه النزعة العقلية الحادة التي تسكاد تتحول عندهم الى شيء مقدس والتي لاقوا في سبيلها كل عنت ، هي التي دفعت دي بور الى القول :

« الحق ان كثيراً من المعتزلة كانوا يعملون على العقل اكثر مما يعملون على القرآن (٣) »

والحق ايضاً انهم كانوا يقدمون العقل على النقل مما دفعهم الى تأويل الآيات القرآنية الكريمة التي لا تتفق مع اتجاهاتهم ، حسب آرائهم ومذاهبهم ، كما دفعهم هذا الموقف الى انكار العديد من الاحاديث النبوية التي تتعارض مع العقل وتتناهى . واصطدموا بالحدثين اصطداماً عنيفاً منذ البداية ، واعتبروهم خطراً على الدين ، لأن بعضهم لا يحصى احاديثه ولا ينقدها . وذهبوا الى تكذيب الصحابي عبد الله بن مسعود في الحديث القائل (ان الشقي من شقي في بطن

(١) التبصير في الدين ص ٧٤

(٢) الاقتصاد في الاعتقاد ص ١٨٩

(٣) تاريخ الفلسفة في الاسلام ، ص ١٠٠ ط ٤

امه) كما لم يقبلوا الكثير من احاديث ابي هريرة الذي اسرف في ايرادها اسرافاً ملحوظاً . وكما يقول احمد امين :

والحق ان فرقة المعتزلة كانت اجراً الفرق على تحليل اعمال الصحابة ونقدهم وإصدار الحكم عليهم (١) . وما ذلك الا لان المعتزلة كانوا يحاولون ان ينفوا فكرة التقديس التي تحيط ببعض الاشخاص من الصحابة خصوصاً ، وتحكيم العقل لهم او عليهم (٢) .

لقد رأى المعتزلة ان العقل البشري قد منح من السلطة والسعة ما يمكنه من اقامة البرهان على ما يتعلق بالله . فلا حدود للعقل إلا براهينه ، ولا خطأ ولا زال متى صح البرهان . فلتستعمل البراهين في ادق الأمور واصعبها وأعقدها ، ففي استطاعة العقل الوصول الى الحق فيها ... وعلى العكس من ذلك الآخرون : رأوا ان العقل اضعف من ذلك ، وانه منح القدرة على أن يدرك البرهان على وجود الله والنبوة عامة ونبوة محمد خاصة ، ولم يمنح القدرة على معرفة كنه الله وصفاته ، قلنؤمن بما جاء به انبياءه... ولنقف عند ذلك (٣) .

التكليف :

نستطيع مما تقدم ان نعرف قول المعتزلة في التكليف ، وفي من يجب عليه ومن لا يجب . والحق اننا نكاد نلح - بصفة اجمالية - انهم يربطون بين الحرية الانسانية والعقل من جهة ، وبين التكليف والمحاسبة من جهة اخرى . فالمكلف عندهم ينبغي ان يكون مزوداً بالعقل أولاً ليُدرك مسؤوليته ، ثم ان يكون مختاراً حراً في تصرفاته - ان شاء اتبع طريق الهدى . وهو مدرك له فيثاب ، وان شاء اتبع هواه - وهو مدرك له - فيعاقب .

(١) فجر الاسلام ص ٢٩٤

(٢) نفس المصدر والصفحة

(٣) ضى الاسلام ج ٣ - ص ٣٩

أما القول بأن كل شيء مقدر من الله منذ الأزل فإنه ينفي - في رأيهم - المسؤولية الانسانية ، وليس الله ظالماً حتى يفعل هذا . بل إن تمام العدل الألهي أن يعطي حرية في الفعل ، ليحاسب عن طريقها عباده . فإن الأجسام - كما يرى الاسكافي - تدل بانقضاءها على أن الله ليس بظالم^(١) ومن العدل ألا يحاسب على فعل قدره منذ الأزل .

عند أبي الهذيل مثلاً أن العبد مكلف بإحياء الفطرة - بالطبيعة والهيئة - والعقل قبل ورود الوحي ، بأن يعرف الله ويقدم على الحسن كالصدق ، ويعرض عن القبيح كالكذب والجور^(٢) .

فكان التكليف مرتبطاً بالعقل . ما دام الله سبحانه وتعالى قد أعطانا عقلاً نميز به ، فهذا وحده يكفي لتكليفنا ومسئوليتنا . ونحن نجد أن إبراهيم النظام يرى نفس رأي أبي الهذيل ، لكن غامضة بن اشرس يخالفها فيقول ، أن الانسان الذي لا يتوصل إلى معرفة الله ومعرفة الحسن والقبيح ، رغم وجود عقله ، ليس عليه امر ولا نهى ، لأنه مخلوق للعبادة والسخره ، فالتكليف مرفوع عنه إذن . ويرى نفس رأيه الجاحظية^(٣) .

الصلاح والاصلاح :

من دأب العقل البشري - في كل زمان ومكان - أن يبحث عن العلل والاسباب في كل ما يرى من ظواهر وافعال . لكن هناك طوائف من البشر تكتفي بمجرد التسليم والايمان بما ترى دون تنقيب او رغبة في الكشف عن المجهول . ويأبى المعتزلة - وقد اتخذوا من العقل قائداً لهم ومرشداً - ألا أن يعللوا أفعال الله وخلقه . فيقولون مثلاً انه خلق هذا العالم لغرض وغاية او لحكمة ، فان العمل بدون غرض وغاية عبث وسفه تعالى الله عن ذلك علواً

(١) (الانتصار) للخطيب ص ٩٠

(٢) تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ١٠٩

(٣) التبصير في الدين - ص ٧٤

كبيراً ، ولما كان الله عادلاً غير ظالم ، وكان حكيماً ، وكان جواداً ، فانه خلق كل شيء لصلاح عباده وخيرهم .

والحكيم من يفعل احد امرين ؛ اما ان ينتفع ، او ينفع غيره . ولما تقدر الرب تعالى عن الانتفاع تعيين انه انما يفعل لينفع غيره ، فلا يخلو فعل من افعاله من صلاح (١) .

هذا هو الاساس الذي بنى عليه المعتزلة نظريتهم المشهورة في الصلاح والاصلاح ، وفي ان كل موجود كامل ، وان كل خلق وفعل لله متقن .

الصحة ، والغنى ، والقوة ، والجنة صلاح لمن اعطوها . والمرض ، والفقر ، والضعف ، والنار ، صلاح لمن اعطوها . لان الاخيرة لو ردت اصحابها لفعالوا اسوأ مما استحقوا عليه العقاب - اذا اعتبرناها عقاباً - فيزداد عقابهم ، وليس في هذا صلاح لهم (٢) .

ثم : هل تجب على الله رعاية الاصلح ؟ ..

قال بعضهم ؛ تجب كـرعاية الصلاح ، وقال بعضهم ، لا تجب ، اذ الاصلح لا نهاية له ، فلا اصاح الا وفوقه ما هو اصلح منه (٣) .

لكن قسماً منهم يرى انه ليس هناك اصلح مما هو كائن ، اي (ليس في الامكان ابداع مما كان) . فאלله الحكيم المتقن لا يخلق الا الاصلح . ونشأت عن هذه المواقف تفريعات كثيرة - سواء بين شيوخ المعتزلة ، او بينهم وبين الفرق الاخرى .

ارجاع مقالات المعتزلة الى اصولهم الخمسة :

من الواضح القارىء في تاريخ ومقالات المعتزلة ، أن هذه المقالات تستند

(١) نهاية الاقدام ص ٣٩٧ - ٣٩٨

(٢) من مشكلة الصلاح والاصلاح ينشأ انقلاب الاشعري ضد المعتزلة . وسيأتي تفصيله فيما بعد .

(٣) نهاية الاقدام ص ٣٩٨

الى مبادئهم - أو أصولهم - الخطة الأولى التي مر ذكرها. وهي : التوحيد ،
والعدل ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر .

فعن أصل التوحيد كانت مقالاتهم عن التنزيه المطلق ، ونفي التشبيه ، حتى
وصلوا الى نفي الرؤية الحسية ونفي الصفات الزائدة على الذات المشابهة لصفات
الإنسان ، والقول بأن القرآن مخلوق ، خشية أن يشارك الله في القدم . وكانت
هذه اكبر المسائل في هذا الميدان .

وعن اصل العدل رأوا أن الله عادل فلا يكلف نفساً إلا وسعها ، ولا يعذب
الطفل ظلماً ، ولا يقدر شيئاً ثم يعاقب على فعله .

وعن اصل الوعد والوعيد نشأت الفكرة القائلة بأن الله تعالى لا بد يثيب
المحسنين ويعاقب المذنبين ، ولا مناص من تنفيذ وعده ووعيده .

وعن اصل المنزلة بين المنزلتين ظهر القول في صاحب الكبيرة ، وفي معنى
الايان والكفر ، واتخذ المعتزلة موقفهم المستقل الخاص في هذا المجال .

وأخيراً كان اصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الذي حدد وجهة
المعتزلة ومحاربتهم للزيغ والاحاد ، ووقوفهم في وجه الطوائف المنحرفة سواء
كان هذا الانحراف عن حسن نية أو سوء قصد . ولشيوخهم - من امثال
عمرو بن عبيد - مواقف مشهورة تتسم بالقوة في الحق ، والصلابة في الدين ،
والدفاع عن كل ما هو فاضل وخير وحسن .

الدَّيَانَةُ الْعَقْلِيَّةُ

الدِّيانَةُ السَّالِيةُ

التكليف بدون وحي - النبوة والأنبياء - المعجزات

يتبين لنا من خلال ما سبق مجلاء مدى تأكيد المعتزلة لأهمية العقل وسلطانه والاعتزاز به كمصدر أول للمعرفة - سواء المعرفة الميتافيزيقية المتعلقة بالله سبحانه وتعالى ، وبالأحكام على الأفعال من الوجهة الدينية ، أو المعرفة الفيزيقية الطبيعية .. معرفة المحسوسات عن طريق التجربة والشك ، ولهذا موضع بحث آخر إن شاء الله .

التكليف بدون وحي :

قلنا إن شيوخ المعتزلة جميعاً تقريباً جعلوا معرفة الله ، والمحسنات والمقبحات ، واجبات عقلية . أي ان على العقل أن يصل الى هذه المعرفة ويحصلها ضرورة ويتمادى ابو الهذيل حتى يجعل العقاب الأبدي جزاء من لا يعمل الحسن ويترك القبيح بحكم عقله ، أي انه يكلف معرفة الخير والشر ، والعمل بمقتضى هذه المعرفة - حتى وان لم يرسل له الله رسولاً بشرح بين له الحلال من الحرام والحسن من القبيح .

وكنتيجة طبيعية لهذا الموقف العقلي الحاد ، وللتطور الذي حدث لافكار المعتزلة ، وغلوهم في الأخذ بأحكام العقل ، ظهر هناك اتجاه الى ما نسميه (الديانة العقلية) أو (الديانة الطبيعية) أو هو بحسب تعبير الشهرستاني : « الشريعة العقلية » التي تعتمد على العقل وحده دون حاجة الى رسول أو نبي ،

وهو اتجاه يظهر لنا مدى الامعان في تقديس العقل ، والاستغناء به عن سواه .
ونحن نرى لهذا الاتجاه شبيهاً له في العصر الحديث - وفي القرن السابع
عشر على وجه التحديد - لدى مدرسة (افلاطوني كمبردج - Cambridge
Platonists) وسنفرد لهذا الموضوع جزءاً خاصاً من هذا البحث ، نقارن فيه
بين الاتجاهين ، والديانتين . إن شاء الله .

لكن قبل الاسترسال في هذا الموضوع ، نحب ان نلقي ضوءاً - في شيء
من الايجاز - على موقف المعتزلة من الأنبياء والنبوات . ثم موقفهم من
المعجزات التي غالباً ما تصاحب الرسل كدليل على صدقهم وانهم جاءوا مبعوثين
من عند الله جل شأنه . وكذلك موقفهم من كرامات الأولياء ، والخرافات
والأساطير ، مع الاشارة الى اتجاههم التجريبي في ميدان العلم ، واستخدامهم
الشك المنهجي فيه .

النبوة والانبيا :

خاص المعتزلة - فيما خاضوا - في موضوع النبوة والانبيا . هل النبوة
جائزة ، ام واجبة ؟ ام مستحيلة ؟ وما تبرير ارسال الرسل ؟ وكيف نوفق
بين الشرائع التي يأتون بها وبين العقل ؟ وهل الأنبياء معصومون عن الخطأ أم
غير معصومين ؟ .. الى آخر هذه الأسئلة وامثالها .

وكان ذلك نتيجة طبيعية لبحث المعتزلة في المعجزات ، ومدى صحتها ،
أو صحة حدوثها ، وضرورتها لتصديق الرسل .

إذ أن اغلب شيوخ المعتزلة وقفوا موقف التشكك في وقوع مثل هذه
المعجزات الخارقة للعادة والمنسوبة للنبي الكريم (ص) مثل انشقاق القمر
ونبع الماء من بين انامله وكلام الحصى في كفه الخ ... هم لم يشكوا في
وقوع المعجزات ارتياباً في قدرة الله على إحداثها ، وانما اكتفاء باستعمال العقل
في تصديق (الرسول) أو تكذيبه . فإن من الواضح أن الله قادر على فعل

الخارق للعادة واحداثه - لكن ليس في القرآن وحده - كشيء معجز لم تكن للبشر القدرة على أن يأتي بمثله، سواء من حيث اللغة والصياغة والاسلوب أو من حيث الإخبار عن حوادث مقبلة والتنبيه بالغيب - أليس فيه الكفاية معجزة قلبي (ص) ؟ ...

ثم ألا ينبغي أن نعطي العقل فرصته في اكتشاف الحق من الباطل، باستعماله في تقرير صدق الرسالة من عدمه ، ودون اللجوء الى خوارق الطبيعة كبراهين لا تقبل النقض ؟ ..

من هنا كان تشكك المعتزلة في المعجزات ، بل وإنكار بعضهم لها (١) . ولقد ربط مؤرخو الملل والفرق - واغلبهم من الاشاعرة - بين موقف

(١) يبدو ان اشهر من انكر المعجزات -ولعله الوحيد الذي اعلن رأيه صراحة وتمسك به- هو ابراهيم بن سيار النظام . ورغم ان عدداً من شيوخ المعتزلة وافق النظام في رأيه وما ذهب اليه الا ان أحداً لم يجر به جره هو به .

غير أن تطوراً كبيراً - بل تغييراً شاملاً - في موقف المعتزلة حدث بعد ذلك على يد القاضي عبد الجبار بن أحمد . فقد الف هذا الزعيم المعتزلي كتاباً كبيراً بعنوان (تثبيت دلائل نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم) على اسس اربعة : ١ - أن الرسول جاء باخبار الامم السابقة ٢ - وجاء باخبار العقائد والنحل السابقة . ٣ - وأنه اخبر بالغيوب « وابراد هذه الأمور بهذه الدقة وحصول ما أخبر به الرسول من كثير من الغيوب لا يمكن أن يكون من انسان امي الا اذا كان يرد عليه وحى » ٤ - ثم ايراد المعجزات ، وخوارق القوانين الطبيعية ، وفي هذا كان يرد على النظام ، فاثبت انشقاق القمر ، واطعام العدد الكثير بالطعام للقليل ، وحنين الجذع ، وكلام الحصى ، ونسج الماء من اقامل الرسول .. وكل ما ورد عن طريق الأخبار الصحيحة .

ولعل هذا التغيير في موقف المعتزلة من مسألة المعجزات كان لأسباب عديدة ، اهمها في رأيي أن المسلمين لم يكونوا ليقبلوا ابدأ الطعن في معجزات الرسول ، وخاصة المعارضين للمعتزلة الذين اتخذوا مذهبوا اليه سلاحاً قوياً شهروه في وجوههم ، كذلك يجوز ان يكون القاضي عبد الجبار فقيهاً أثراً في هذا التعديل . كما لا ننس انه كان في بادىء امره اشعرياً ثم صار معتزلياً ولا بد انه نادى بهذا التعديل في موقف المعتزلة باثر من نشأته الأولى .

المعتزلة من جهة والبراهمة (١) من جهة أخرى، في مسألة النبوات محاولة منهم تشويه صورة خصومهم لدى العامة من المسلمين .

فقالوا بأنهم يقلدوني البراهمة في عدم ضرورة إرسال الرسل وكفاية العقول (٢) كما يفعل الباقلاني المعروف بتعصبه الشديد ضد المعتزلة .

لكن الغزالي في كتابه (الاقتصاد في الاعتقاد) ومحمد بن عبد الكريم الشهرستاني في كتابه (نهاية الاقدام في علم الكلام) يوردان فارقاً كبيراً بل تضاداً تاماً بين الطائفتين .

فبينما يقول البراهمة باستحالة النبوات عقلاً - إذ النبوة عندهم إما مخالفة للعقل فتنبذ وتطرح ، وإما موافقة له فلا حاجة لها - يرى المعتزلة وجوب إرسال الرسل وظهور النبوات ، بناء على نظريتهم في اللطف ، وأن الله لا يفعل بعباده الا الأصلاح . إذ أنت من اللطف ان ترشد الجاهل وتبين للغافل وتسهل للمستصعب . وهذا ما يفعل الله سبحانه وتعالى ، ولذا وجب إرسال الرسل (٣) فإن التكليف كلها ألطاف ، وبعثة الانبياء وشرع الشرائع وتمهيد الاحكام والتنبيه على الطريق الأصوب كلها ألطاف (٤) .

بل يصل الأمر الى ان يرد المعتزلة على البراهمة - رداً عقلياً - كما دأبهم فيقول القاضي عبد الجبار بن احمد : « كل ما على المكلف فعله او تركه قد ركب به الله جملة في العقول . وانما لا يكون في قوة العقول التنبيه على تفاصيلها . وهذا فصل اذا عرفته تبينت أن كل التكليف مطابقة للعقول ، وكذلك

(١) طائفة هندية تنكر امكان ارسال الرسل .

(٢) « التمهيد » ص ١٢١

(٣) نهاية الاقدام ص ٤٩٥

(٤) الملل والنحل ص ١٢١ . ويعرفون اللطف بأنه ما به يقرب العبد من الطاعة ويبعد عن

المصيبة ، ارجه الله على نفسه تفضلاً ايجاب جود لا ايجاب تكليف .

احوال المعاملات وما يتصل بالنفع والضرر ، وظهر لك بطلان مذهب البراهمة في ادعائهم أن الشرائع وقعت مخالفة للعقول . » (١)

لكن أهل السنة يمتقدون أن النبوات جائزة وليست مستحيلة أو واجبة وهذا موقف وسط فيه الخيار لله سبحانه ليتصرف كيف يشاء بدون احوال أو ايجاب .

كذلك يربط المعتزلة بين الاختيار الانساني من جهة وبين ارسال الرسل من جهة اخرى ، ويبنون على موقفهم المعادي للجبر والمؤيد لشعور الانسان بحريته ومسئوليته ، نظرتهن الى الاختيار كمبرر لهذه الرسائل .

فعند (القوطي) انه لو علم الله وقدر كل شيء لما كان هناك ضرورة لارسال الرسل . إذ كيف يقدر شيئاً ، ثم يبحث بمن يُنبىء ويُعلم دون فائدة ولا جدوى ، ما دام كل شيء مسطراً منذ الأزل ؟ .. ففي الرسائل إذنت تبرير للتكليف . وفي الاختيار الانساني تبرير للرسالات .

والحق أن المعتزلة - رغم إيمانهم بالنبوات - لا يفلون في تقدیس أصحابها وتزويهم عن الأخطاء. فهم مثلنا يخطئون ويزلون - وان كانوا معصومين من الخطأ في تبليغ الرسائل .

فقد أخطأ آدم عليه السلام فأخرج من الجنة ، وأخطأ موسى عليه السلام بقتل رجل ، وعيسى محمد ﷺ في وجه رجل فقير فعاتبه ربه في سورة (عيس) ، (عيس وقولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ؟ ..) (٢) . لكن ذنوبهم جميعها مغفورة ، فقد غفر الله لرسله ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر (٣) .

(١) المجموع من المحيط بالتكليف ص ١٣

(٢) سورة : عيس آية ١ - ٣ .

(٣) الانتصار ص ٩٤ - ٩٥ / والغريب أن الشهورستاني يذكر في (الملل والنحل) ان المعتزلة يبالغون في عصمة الانبياء عن الذنوب صفائرها وكبائرها . ص ١٣٠ ج ١ .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن شيوخ المعتزلة الذين تسكوا بكفاية العقول . وأن العقل وحده يقوم مقام الأنبياء ، من أمثال أبي علي الجبائي وابنه أبي هانم .. هؤلاء الشيوخ كانوا يرون أن من مهمة الأنبياء الكبرى تحديد الأحكام والعبادات ، من مثل تحديد موعد الصوم والصلاة والزكاة وكيفيتها ، وإعدادها وتوقيتها ، إلى آخر التشريعات المعروفة في العبادات . إذ أنه ليس من مهمة العقل معرفة هذه الأشياء التفصيلية ، فيكون عمل النبي قبيها وشرحها لتطبيقها .

آل البيت والصحابة :

كذلك كان المعتزلة - الاوائل منهم خاصة - لا يحملون احتراماً زائداً لآل البيت والصحابة رضي الله عنهم . لا عن نفور وسخرية ، ولكن اتباعاً للعقل ، واحتراماً لمكانته ، وبعداً عن التقليد الأعمى في محبة آل النبي وصحبه . فقد وقف المعتزلة موقف النقد من بعض الصحابة بل والتجريح والتكذيب . فنقدوا عمر بن الخطاب بل وعابوه ، ونقدوا عثمان في بعض تصرفاته ، وأكذبوا عبدالله بن مسعود وأبا هريرة في كثير من الأحاديث التي أورداها ولا تتفق مع العقل السليم .

وكان نقدم للصحابة ذا فائدة عظيمة في تاريخ الإسلام ، إذ أبعد عنهم تلك الهالة التي أحاطهم بها عامة المسلمين ، حتى كادوا يبلغون بهم مرتبة النبوة والألوهية . فخفف موقف المعتزلة من هذه الغلواء ، وأبقى الصحابة - رضوان الله عليهم - حيث أرادهم الله بشراً ، يخطئون ويصيبون .

أما بالنسبة لآل البيت فقد اتخذ المعتزلة موقف التشيع المعتدل المنعقل ، الذي يرى في آل أبي طالب ذري حق يجب ان يُناصروا ، وليسوا أنصاف آلهة يعبدون ، وينعون على الذين يحاولون تأليه آل البيت ورفعهم فوق منزلة البشر بأنهم إنما يضرونهم بعملهم هذا ولا ينفعونهم . فلو أريد لآل البيت الفوز لوجب عليهم التعلم وسماع العلماء وحضور مجالسهم وأن يحثوا على طلب

العلم ومجالسة أهله ، والاختلاف اليهم ودرس كتبهم حق يكونوا في معرفة ما يريدونه منهم ويرشحونه لهم كأعدائهم ^(١) . ولا ينبغي أن يقصوا عليهم أخباراً قلّهم عن العمل والعلم ، أو يوهّمهم بأن المعاصي لا تضرهم ، وأن الواحد منهم يشفع في من أراد أن يشفع فيه !! ذلك لأن الاقتصاد في التشيع - كما يرى الحياط - حق وهو وضع آل البيت حيث وضعهم الله ^(٢) . وفي هذا الموقف الذي اتخذته الجاحظ وغيره من أئمة المعتزلة ترى التحرر الكامل من التقليد والتبعية واضحاً ، وإعمال العقل . بل هذا (عين العقل) بالنسبة لموضوع من أخطر الموضوعات وأكثرها حساسية من الناحيتين الدينية والسياسية .

المعجزات ، والكرامات والخرافات :

تظهر السمة العقلية للفكر المعتزلي في مجالات كثيرة ، وهي تنضح أيضاً في مجال الحديث عن المعجزات والآيات التي يأتي بها الأنبياء ، كدليل على صدقهم . ومع أن المعتزلة لم ينكروا المعجزات جملة ، إلا أن بوادر شك في المعجزات التي لم تجتمع لها قرائن كافية ترجحها وتثبت صحة حدوثها ^(٣) تبين في ثنايا الحديث حول هذا الموضوع .

فإننا نرى إبراهيم النظام مثلاً يكذب رواية ابن مسعود عن انشقاق القمر ، ويحتج بأن القمر لا يمكن أن ينشق لابن مسعود وحده ، وإلا فلم لم يره كل العالمين ؟

وهذا تساؤل معقول . وهو يفسر الآية (اقتربت الساعة وانشق القمر ^(٤)) بأنها إنذار وتنبيه بأن القمر سينشق في المستقبل وليس في الماضي

(١) الانتصار ص ١٥٤ .

(٢) نفس المصدر ص ١٥٦ .

(٣) سورة : القمر آية : ١ .

كذلك شك بعضهم في كلام الحسا ونبيع الماء من بين أصابع النبي ﷺ حيث إن هذه الخوارق لم تثبت ثبوتاً قطعياً^(١) .

أما عن كرامات الأولياء ، فقد انكرها المعتزلة إنكاراً تاماً - كما يروي البغدادي في (الفرق بين الفرق) - ولم يسلموا بها .

وأغلب الظن عندي أن المعتزلة كانوا لا يصدقون بما يروى عن معجزات الأنبياء أيضاً - سياقاً مع تحكيمهم للعقل وتمسكهم به - وإن منهم من إظهار آرائهم الصريحة خوف من العامة ، ومن الخوض في هذا الموضوع الشائك الخطير . إذ لا ريب أن العامة يربطون دائماً بين الكفر وبين إنكار المعجزات والخوارق . وذلك لأن إيمانهم يقوم على جانب كبير من الحسية ، وليس إيماناً عقلياً مما يتمتع به الخاصة فعسب .

أما الخرافات السارية بين الناس فإن المعتزلة لم يتورعوا عن الجهر بالسخرية منها وتسفيه أصحابها والهزء بهم . ونحن واجدون في الجاحظ أكبر ممثل لهذه النزعة ، خاصة في كتاب (الحيوان) . وكان حرياً بذوي النزعة العقلية أن يهزأوا ممن يقولون بزواج البشر من السعالي ، وبالثعبان ذي الرأسين ، وبغيرها من الخرافات .

فإذا ما رُمي أحدهم بتأكيدها ، فإن أصحابه سرعان ما يهبون للدفاع عنه ونفي هذه التهمة الباطلة .
نقرأ في (الانتصار) مثلاً :

« ثم إن صاحب الكتاب - ابن الروندي - خبر بأخبار كأنها من خرافات النساء والصبيان ، ... ثم ذكر التصديق بالنجوم فرمى به أبا مجالد ، وما رأيت أحداً كان أغلظ على من صدق بها منه ، ولا أشد إقداماً على من فعله منه . ولا رأيت أحداً أشد تصديقاً من هذا الماخن لها . فعكس القصة وأضاف إلى أبي

(١) ارجع لكتاب الدكتور أبي ريدة : (ابراهيم بن سيار النظام) ص ١٦٥ - ١٦٦ .

مجالد ما قد عرف هو الخبيث به ، (١) .
أما التحرر من التقليد والمتابعة ، والبحث عن الحقيقة بأساليب الشك
المنهجي ، والتدقيق العلمي المبني على التجربة المحسوسة ، فإن هذا ما اشتهر به
المعتزلة وشيوخهم ، من أمثال النظام والجاحظ ، وتروى عن « تجارهم »
العملية أقاصيص كثيرة تدل على اهتمامهم بالواقع العملي وعدم انسياقهم وراء
الاعتقادات التي لا تثبت التجربة الحسية صحتها . وليس هذا محل الإطناب في
هذا المجال . فلنكتفِ بالإشارة العابرة .

الديانة العقلية :

رأينا مما تقدم مدى طغيان الاتجاه إلى العقل والاعتراف بسلطانه لدى
الغالبية العظمى من شيوخ المعتزلة . ونقول (طغيان) قاصدين ما تحمله هذه
الكلمة من معنى التسلط والسيطرة المطلقة على جوانب التفكير المعتزلي ومناحيه .
ذلك أن المعتزلة تقادوا في هذا السبيل حتى كاد بعضهم ينكر ما عداه من
أمر لا تقع تحت طائلة العقل . فإذا ما تعارض العقل مع الدين رجحوا الأول
على الثاني بناويل أو بغير تأويل . المهم أن العقل هو المسيطر وهو السيد في
جميع الحالات .

وإذا كانت هل السنة - والاشاعة من بعد - لم ينكروا أهمية العقل
ودوره الرئيسي الكبير ، لكنهم جعلوه خاضعاً للشرع ، وموقوفاً على خدمة
الدين ، بأن صيروه وسيلة للفهم والاستدلال والبرهنة على ما جاء به الوحي ،
فإن المعتزلة قلبوا الآية ، وجعلوا من الدين خادماً للعقل ومؤيداً لأحكامه .
فإذا ما تصادم الطرفان غلبوا العقل ونصروه .

القضية إذن أصبحت قضية صراع بين الجانبين ، يقف فيها كل فريق موقفاً
يناقض الآخر ويخالفه ، ومن هنا كان هذا النزاع الحاد العنيف ، وتبادل الاتهام

(١) الانتصار . ص ١٠٣

بالكفر والزندقة والمروق من الدين ، والبعد عن روح الإسلام . ومن هنا كان تمادي كل فريق في التعصب لمذهبه والانحياز الكامل له .

أهل السنة والسلفيون عامة اشتدوا في الحرب على العقل ، ورفضوا التسليم بأحكامه إلا خاضعة للدين والشرع ، والقرآن والسنة .

وأهل الاعتزال تمادوا في تمجيد العقل وتسويده ، حتى وصلوا آخر المطاف . وكانت « الديانة العقلية » أو « الطبيعية » هي آخر المطاف .

فما هي هذه الديانة ؟ ..

الحق أن برادرها كانت قد ظهرت متناثرة هنا وهناك في آراء شيوخ المعتزلة من الطبقة الثانية والثالثة من أمثال أبي الهذيل والنظام والجاحظ ، في ثنايا حديثهم عن المعرفة الضرورية ، والتحسين والتقييح العقلين ، والتكليف . لكنها برزت تماماً على يد رجال المرحلة الرابعة والاخيرة (١) وخاصة عند أبي علي الجبائي وابنه أبي هاشم .

ويمحسب بنا أن نبادر إلى توضيح المقصود بالديانة العقلية قبل أن يلتبس الأمر ، فنقول : إنها ليست ديانة بالمعنى المفهوم لهذه الكلمة ، وما تحتوي عليه من تشريعات وطقوس وشعائر وعبادات ، ولم يصل الأمر إلى اعلانها ديناً ورسالة في يوم من الأيام على يد المعتزلة - وإن كانت قد ظهرت في بداية القرن السابع عشر على يد جماعة من المفكرين الانجليز سيأتي ذكرهم - ولكنها انجاء عقلي أشبه بالاعتقاد في إله خالق عن طريق النظر ، دون الاستعانة - كما يحدث عادة - برسالة ووحى منزل .

ولقد سبق أن رأينا - خلال دراستنا الماضية - كيف نشأ القول بالتكليف من غير وحي يوحى ، وكيف أوجب بعض شيوخ المعتزلة على المفكر العاقل النظر ومعرفة الله تعالى بل ومعرفة صفاته ، وأوجبوا عليه فعل الحسن وترك

(١) المقصود قبل انفصال الأشعري .

القبیح ، عقلاً بدون امر أو نهی . ثم رأينا كيف كان أبو الهذيل العلاف مثلاً يرى أن الله سيعاقب المفكر الذي لا يأتي بما ذكرناه ويخلده من النار .. إلخ . من مجموع هذه الآراء المعتمدة على العقل وحده . ومن التدرج إلى القول بقصر عمل الرسول على تحديد الأحكام وتبيين المعارف التي لا يبلغها العقل دون معونة كالعبادات ونحوها . ومن القول بضرورة معرفة الله والخير والشر وغير ذلك من أمور عقلية صرفة . من كل هذا تتكون الديانة العقلية « او المقيّدة الطبيعية » .

يقول الشهرستاني عند حديثه عن أبي علي الجبائي وابنه أبي هاشم ، بعد أن بين آراءهما في مختلف الموضوعات :

واتفقا على ان المعرفة ، وشكر المنعم ، ومعرفة الحسن والقبح واجبات عقلية ..

وأثبتا شريعة عقلية ، وردا الشريعة النبوية الى مقدرات الاحكام ومؤقتات الطاعات التي لا يتطرق اليها عقل ولا يحتدي اليها فكر ... والايان عندهما اسم مدح، وهو عبارة عن خصال الخير التي اذا اجتمعت في شخص سمي (مؤمناً)^(١) .

من هنا نرى كيف تدرجت النزعة العقلية لدى المعتزلة وتطورت ، حتى أصبحوا لا يرون محيصاً من احتضانها تماماً ، والمناداة بسيادة العقل حتى في أخص الخصائص الدينية وهو الإيمان ، فيتحول عندهم إلى اسم مدح نتيجة فعل الخير بلا قيد ولا شرط .

وهذا لعمري منتهى الإفراط في الاعتماد على العقل البشري .

نادى الجبائيان إذن بالشريعة العقلية وأثبتاها ، أي أنها اكتفيا بها كمصدر

(١) الملل والنحل ص ١٢٠ ج ١

للمعرفة والحكم . وبقي عليها أن يقررا مصير الشريعة النبوية ومدى الحاجة إليها . فقالا إن مردها إلى مقدرات الأحكام - أي تقريرها كالصلاة والصوم ونحوهما - ومؤقتات الطاعات - أي توقيت هذه العبادات وطريقة أدائها . إننا وإن كنا قد وجدنا ظهور الشريعة العقلية هذه كنتيجة حتمية لتطور النزعة العقلية عند المعتزلة ، إلا أن « دي بور » - كمادة المستشرقين دائما - يضيف عاملا آخر إلى هذا الظهور ، فيقول :

« إن المعتزلة نظروا في الأديان الثلاثة السماوية يقارنون بعضها ببعض ، بل يقارنون هذه الأديان بالتعاليم الدينية عند الفرس والهنود ، وبالأراء الفلسفية أيضاً ، فتوصلوا بذلك إلى شريعة فطرية عقلية توفى بين الآراء المتخالفة ، وهذه الشريعة تقوم على أن في الإنسان علماً فطرياً يؤدي بالضرورة إلى معرفة إله واحد خالق حكيم ، وهب الإنسان عقلاً به يعرفه وبه يميز الخير من الشر . ويقابل هذه الديانة الطبيعية أو العقلية المعارف التي ينزل بها الوحي ، وهي مستفادة من مصدر خارج عن فطرة الإنسان » (١) .

كان (دي بور) يوشك أن يقول بأن هذه الشريعة العقلية التي اثبتتها المعتزلة ليست سوى محاولة لتوحيد الأديان المتضاربة المختلفة ، أو هي خلاصة أهداف الأديان من جهة ثانية ، أو هي هروب من جميع الديانات والعقائد إلى عقيدة بسيطة سهلة تابعة من ذات الإنسان وحده دون مؤثر خارجي يكون تفسيره مدعاة للشقاق والخلاف . وهذا تفسير بعيد الاحتمال . فوحدة الأديان - رغم ظهورها فيما بعد لدى متصوفة المسلمين كمحيي الدين بن عربي - لم تخطر للمعتزلة على بال . إذ هم مسلمون متعصبون للإسلام ، معنونون في التعصب مدافعون عنه ، مؤمنون بما جاء في القرآن الحكيم وبما أنزل على الرسول الكريم . وإنما بدت هذه الديانة العقلية - كما قلت - نتيجة للتيار العقلي

(١) تاريخ الفلسفة في الإسلام . ص ١٠٥ والهامش .

المسيطر على تفكيرهم وآرائهم ونظرياتهم ، ولثقتهم المطلقة بالعقل وقدراته وسلطانه ، وكافتراض لما ينبغي ان يكون عليه الحال لو لم يكن هناك وحى من الله .

بين المعتزلة وافلاطوني كمبرج :

إن الحديث عن الديانة العقلية يذكرنا بما ظهر في منتصف وأواخر القرن السابع عشر في إنجلترا - وبالتحديد في جامعة كمبرج - من دعوة الى ديانة طبيعية فطرية تشبه الى حد كبير الديانة التي تبناها المعتزلة ، وتنفق معها في كثير من الآراء خاصة مسائل الحسن والقبح ، او الخير والشر العقليين ، وغيرهما من المسائل اللاهوتية الفلسفية . فهل كان افلاطونيو كمبرج متأثرين - على نحو ما - بآراء المعتزلة ؟ ... هذا ما لا نعرفه ولم يتحقق به . . . فملى الرغم من وضوح تأثير الفلاسفة والعلماء الغربيين بالفلسفة الاسلامية ^(١) الا ان الستار لم يزح بعد عن علاقة افلاطونيو كمبرج بالمعتزلة.

من هم افلاطونيو كمبرج :

هم جماعة من فلاسفة الانجليز اتخذ اغلبهم « كمبرج » مقراً لهم ، ظهوروا في اواسط واواخر القرن السابع عشر الميلادي ، وكانت تغلب عليهم النزعة التطهيرية الميالة الى التصوف ، ولا يحفلون كثيراً بالطقوس والشعائر الدينية . من اشهرهم رالف كدوورث ، هنري مور ، رتشارد كمبرلاند ، جون سمث وبنيامين وتشكوت .

كانت بحوثهم في الفلسفة والتصوف ذات صبغة متعمقة وان كانت خليطاً

(١) كلنا يعرف تأثير ابن رشد وابن سينا في هذا المجال . وتكشف الدراسات الحديثة عن فواحي اتفاق غريب بين آراء ديكارت والفرازي . كذلك ظهر اثر المسلمين في الانجاء التجريبي الذي كان بداية النهضة الاوروبية الحديثة .

يشبهون به (اخوان الصفا) في الاسلام ، متأثرين في آرائهم بالافلاطونيين الجدد وبآراء افلوطين على وجه الخصوص .

اما الدين لديهم فقد كان عبارة عن طريقة للحياة قبل كل شيء هم جاءوا بافكار ذات اثير ملحوظ في نظرية المعرفة وفي الاخلاق لكن الملاحظ ان نظرياتهم وافكارهم كانت الى التصوف والتطهر الخلقي اميل ، وهذا اثر من آثار افلوطين ، رغم ان ويتشكوت كان لا يفتأ يذكر قارئه بأن « العقل سراج الله » (١) .

وكانوا هم الذين حفظوا الكنيسة الانجليزية من ان تفقد صلتها بالامة كما يقول بيرنت (٢) وذلك عن طريق عبارة الجدل الاسكولائي الذي سيطر عليها في اوائل القرن السابع عشر .

وقد لعب أفلاطونيو كمبردج دوراً طيباً في عالم الفلسفة واللاهوت . على ان « و. ر. سوري » يذكر ان هذه الجماعة لم يكن كل رجالها فلاسفة ، او افلاطونيين . إذ أن التجاهم الديني - في المحل الأول - هو الذي أدى الى اعتبارهم مدرسة وإعطائهم اسماً خاصاً هو (الرجال الأحرار) .

ولعمري ان في هذا شبيهاً كبيراً بين المعتزلة وأفلاطونيو كمبردج . إذ أن مباحث هؤلاء الكلامية هي مباحث تلك اللاهوتية .

وحق الاسم الذي اشتهر الأخيرون به (الرجال الأحرار) ينطبق على المعتزلة تمام الانطباق ، وهم يعرفون به اليوم لدى الدارسين الغربيين .

فماذا يقول أفلاطونيو كمبردج أيضاً ؟ ..

هم تجنبوا مراوغات اللاهوت المنتشرة ، وعارضوا التسرع في الإيمان

(١) انظر « الموسوعة الفلسفية المختصرة » / ١٩٦٣ .

(٢) A History of English Philosophy ص ٧٥ .

والحاس (أو ادعاء الوحي الخارجي) .. وقالوا بأن الدين الحقيقي يجب أن يتسق مع الحقيقة العقلية وركزوا على العوامل الاخلاقية والعقلية في الدين (١) الدين الحقيقي السليم اذن يجب ان يتفق مع العقل ولا يخرج عن نطاقه ، وإلا كان هراء ولنفوا . وهذا بالضبط هو موقف المعتزلة . وماذا عن الله ؟ ..

إن روح الطبيعة هي التي تقوم مقام الاله في الكون . فـ More مثلًا يرى ان « الكون الطبيعي بأجمعه تتخلله روح . هذه الروح العامة الانتشار ليست الإله ذاته » بل هي روح الطبيعة (٢) أما عن صفات الله ، فأهمها : الصدق ، والعدل ، والخيرية . الله صادق ، وعادل ، وخير . وماذا قال المعتزلة غير ذلك ؟ .. الله لديهم صادق لا يخلف وعده أو وعيده ، والله عادل وهم أهل العدل ، وهو خير فلا يبخل على عباده بل يفعل بهم الأصلاح دائماً .

ثم نأتي إلى مسألة أخرى تتضح فيها الصلة بين المعتزلة وأفلاطوني كمبردج يجلاء ، وأعني بها مسألة الحسن والقبح العقليين .

يرى (مور) أن : « الفضيلة ليست عادة » بل قوة .. قوة عقلية للروح ملغية للمواطف .. فالعاطفة ليست خاضعة فحسب للطبيعة بل للعقل السليم . وكما أن ماهية الشيء تدرك بالفهم ، وأن المثلث (مثلاً) هو ما يدركه العقل كما هو كذلك ، فإن الشيء نفسه يمكن أن يقال في الأخلاق ؛ فتوجد أفكار غير متغيرة عن الخير والشر ، وهي التي يحكم فيها العقل ، فتوجد حقائق اخلاقية أولى ، أو مبادئ اخلاقية ، (٣)

أي أن العقل يحسن ويقبح ، وبه وحده يعرف الخير والشر . وهذه نظرية يتفق فيها (مور) مع المعتزلة تمام الاتفاق .

(١) A History of English Philosophy ص ٧٥ - ٧٦ .

(٢) نفس المصدر ص ٨٤

(٣) نفس المصدر ص ٨٧

يقول (مور) : « إن كل الخير الأخلاقي - كما يسمى بحق - عقلي وإلهي .
عقلي طالما حددت ماهيته وحقيقته وعرفت بالمقل ، إلهي طالما كانت حلاوته
أكثر لذة ، وأكثر إمتاعاً بالفعل في تلك الملكة الإلهية التي بها نسمو إلى الإله
الأكثر صفاء وإطلاقاً . » (١)

الحرية الانسانية ،

وكما تعرض المعتزلة لقضية الحرية الانسانية ، وللقدر ، كذلك فعل
أفلاطونيو كمبردج . هم ناقشوا هاتين المسألتين وبينوا موقفهم الواضح منها .
وعندما بدأ (رالف كدوورث) يكتب كتابه « النظام العقلي الحقيقي
للكون » كان يضع في ذهنه فقط حديثاً عن الحرية والضرورة . (٢) .

ومثلما آمن المعتزلة بالاختيار الانساني وبحرية تصرف الانسان وأفعاله ،
كذلك فعل أفلاطونيو كمبردج ؛ فوقفوا في وجه المنادين بالقضاء والقدر ،
وعارضوا القول بالجبر وتحكم قوى خارجية في أفعال الانسان . وكانت
هناك ثلاثة أنواع من القدرية (القول بأن كل شيء مقدر منذ الأزل) دحضها
أفلاطونيو كمبردج وعارضوها .

الاولى : القدرية المادية الملحدة التي يسميها كدوورث بالديموقراطية .
والثانية : القدرية المؤمنة اللا أخلاقية التي تحيل كل شيء إلى الإله ، وتقيم
التمييز بين الخير والشر على أسس تعسفية . وثالثها : شكل آخر من القدرية
المؤمنة التي على الرغم من انها تقبل اضافات أخلاقية في الإله لا تترك مكاناً
للحرية الفردية (٣) .

في وجه هذه الانماط الثلاثة من القدرية وقف أفلاطونيو كمبردج بشدة ،

(١) ص ٨٨

(٢) ص ٨٩

(٣) ص ٩٠

مؤيدين حرية الانسان واختياره وقدرته على الفعل والتصرف .. تماماً مثلما فعل المعتزلة من قبل .

ثم يبرز سؤال جديد :

ما هو مقياس الدين الصحيح في رأي أفلاطوني كمبروج ؟ أو بعبارة أخرى : ما هي أسس الدين الصحيح ؟ ..

هنا نجد أن (رالف كدورث) - وهو من أشهر قادتهم - يقدم ثلاثة أسس تشكل ضروريات الدين الصحيح - في رأيه - غير المعتمد على الوحي والتنزيل ، بل على العقل وحده :

١ - وجود الإله ؛ وهذا يمكن إثباته بالدليل إذا لم يكن معرفة ضرورية أولية .

٢ - الطبيعة الخالدة للغير ؛ بمعنى أن الخير ذو طبيعة ثابتة لا تتغير بتغير الظروف أو الزمان أو المكان .

٣ - حرية الانسان ؛ وهذه تعطي الإنسان قيمته البشرية من حيث هو مخلوق مفكر عاقل ، حر التصرف ، مكلف ، محاسب على ما يفعل ، فيعاقب أو يثاب^(١) .

هذه هي عناصر الدين الصحيح غير المشوب بالناويلات والتفسيرات التي تبعد عن تيار العقل السليم ، وتجعله مجرد خرافات وأساطير وطقوس . ولقد خطط « كدورث » لكل من هذه العناصر الثلاثة مشروع كتاب مستقل يشرحه فيه . لكن الكتاب الأول فقط - وهو المعارض للألحاد - هو الذي أكمل ونشر .



هذه مقارنة عابرة بين مدرستين متباعدتين في الزمان، لكنها متقاربتان

(١) نفس المصدر ص ٩٠ .

في الفكرة . ظهرت الاولى ممثلة لأحد التيارات الفكرية الإسلامية ، وظهرت الثانية بعدها بثمانية قرون في أقاصي الغرب المسيحي ، أحببنا الإشارة إليها حتى نتبين معالم سبق المسلمين في هذا المجال .. مجال احترام العقل وتحكيمه .

والآن وقد أحطنا علماً بجوانب كثيرة تظهر فيها النزعة العقلية في تفكير المعتزلة ، في مختلف المسائل التي تعرضوا لمناقشتها والخوض فيها ، وأدركنا كيف انتهى بهم الأمر الى اثبات هذه « الشريعة العقلية » .. فقد آن لنا ان نعرض لتيار جديد ظهر من صلب المعتزلة ، وانقلب عليهم . وأعني به التيار الأشعري .

انقلاب الأسرى

انقلاب الأُمرى

غلو المعتزلة في العقل - رد الفعل وأثره

تطور الأخذ بالعقل - كما لمسنا - عند المعتزلة كثيراً ، ومر بثلاث مراحل . فبعد أن كان العقل وسيلة لفهم الدين وتفسير نصوصه ، أصبح مساوياً للشرع ونداً يحاول المعتزلة التوفيق بينهما في جميع الحالات . ثم غلبوا العقل على النقل تغليباً كبيراً ، وعملوا على تطويع الوحي ليكون هو في خدمة العقل . وبهذا انقلب الأمر الى عكس ما بدى به ، ونشأ عن هذا الصراع الطويل الحاد بين أهل السنة وأهل الاعتزال . ثم ظهرت في القرن الثالث فرق كالكرامية وسواها تعارض اتجاه المعتزلة وتعاليمهم ، وبدأت بوادر التمرد والضيق بهذه المناقشات والمجادلات المتزايدة . وفي هذه الاثناء حدث انقلاب الأشعري الشهير ، الذي غير موازين القوة ورجح كفة أهل السنة على أهل الاعتزال .

ولا ريب ان الغلو الشديد في التعميل عند المعتزلة كان سبباً من أسباب انتفاض الكثيرين - ممن يشعرون بعمق العاطفة الدينية لديهم - على المعتزلة وتفورهم منهم . كما أن هذا التعميل وما تبعه من مجادلات وأقوال في التكليف العقلي والمعرفة الضرورية ، والصالح والاصلاح ، أوقع شيوخ المعتزلة في تناقضات

عديدة ، جعلت من السهل على خصومهم قطعهم في الجدل الكلامي والنقاش الدائر حول مختلف المشكلات .

لكن بوادر الانتفاض على المعتزلة - حتى من أقرب تلاميذهم إليهم - كانت متجمعة في الأفق السياسي والثقافي والديني ، بسبب اتهامات أهل السنة ، يلعبهم عامة الشعب ، لهم بالاحاد والكفر وسبب عوامل التفكك والانحلال التي تسربت الى صفوفهم ، حتى بات يكفر بعضهم بعضاً ، ويتراشقون بأشنع التهم .

وكان ابو الحسن الأشعري (المتوفي سنة ٣٢٤ هـ) أحد تلامذة أبي علي الجبائي ، عاش في بيته ، ونما مع المعتزلة أربعين عاماً ، تشرب خلالها مذهب الاعتزال وأتقنه .

لكن حادثة صغيرة - تماماً مثلما حدث من واصل مع الحسن البصري - ونقاشاً دار حول مسألة الصلاح والأصلح جعلت أبا الحسن الأشعري ينقلب على المعتزلة ويعلن انفصاله عنهم ، وعودته إلى حظيرة أهل السنة (١) .

وتتلخص القصة - كما تروىها كتب الفرق - في أن الأشعري سأل استاذة : - أيها الشيخ ! ما تقول في ثلاثة : مؤمن وكافر وصبي ؟ فقال الجبائي : المؤمن من أهل الدرجات ، والكافر من أهل الدرجات ، والصبي من أهل النجاة .

فقال ابو الحسن : فإن أراد الصبي أن يرقى إلى أهل الدرجات ، هل يمكن ؟ قال الجبائي : لا . لأن المؤمن إنما نال هذه الدرجة بالطاعة ، وليس للصبي مثلها .

(١) راجع (تاريخ الفلسفة في الاسلام) . ص ١١٦ وما بعدها . (والمعتزلة) لزهدي جار الله ص ٢٥٤ - ٢٥٨ .

قال الاشعري : فإن قال التقصير ليس مني ، ولو أحسيتني يا رب كنت عملت الطاعات كعمل المؤمن .

قال الجبائي : يقول له الله : كنت أعلم انك لو بقيت لعصيت ولعوقبت ، فراعيت مصلحتك وأمتسك قبل أن تنتهي إلى سن التكليف .

قال الاشعري : فلو قال الكافر : يا رب ! علمت حاله كما علمت حالي ، فهلا راعيت مصلحتي مثله ؟!

فانقطع الجبائي ، وسكت .

ومنذ ذلك الحين أعلن الاشعري انفصاله عن المعتزلة ورجوعه الى حظيرة أهل السنة واتباع الامام أحمد بن حنبل (١) .

ولا شك ان الاشعري كان يبيت نية الانفصال والاستقلال ، بعد ما رأى من تحبط المعتزلة ، وما شاهد من تألب الفرق ضدهم ، ليتخذ بعد هذا طريقاً وسطاً (٢) بين أهل السنة والمعتزلة الذين لم يزل متأثراً بأرائهم ، وبالمشكلات التي خاضوا فيها ، وبطريقتهم في الجدل والكلام .

كان موقف الاشعري - ومن تبعه بعد ذلك - رد فعل معتدل ، حاول فيه باخلاص ان يوازن بين التيارات المتنازعة . ان نظرة واحدة الى اغلب آرائه الدينية والكلامية في مسائل خلق القرآن ، والصفات ، والافعال الالهية والانسانية ، ونحوها من المسائل ، لتبين بجلاء مبدأ التوسط الذي نهجه .

(١) تروى قصة انفصال الاشعري عن انه اقام مع المعتزلة أربعين عاماً . حتى صار اماماً للمعتزلة . ثم غاب خمسة عشر يوماً عن الناس . ثم خرج الى الجامع وصعد المنبر وقال : معاشر الناس ! انما تغيبت عنكم هذه المدة لاني نظرت فتكافأت عندي الأدلة ولم يترجع عندي شيء على شيء فاستهديت الله تعالى فهداني الى اعتقاد ما اردعته في كتبتي هذه ، وانخلعت من جميع ما كنت اعتقده كما انخلعت من ثوبي هذا . وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٦٤

لكن لعل أهم ما جاء به الأشعري - وإن كان « دي بور » يقرر أنه لم يأت بجديد - هي نظريته الشهيرة في الأفعال الكسبية ، في محاولة لفض مشكلة الفعل الإنساني ومدى نصيبه من الحرية الذاتية - وهي نظرية تتوسط بين الفريقين المتنازعين ؛ أهل السنة ، وأهل الاعتزال .

أما موقفه من العقل فكان موقف المعارض . إذ هو لا يعتبر العقل المستقل عن الوحي سبيلاً إلى معرفة الشئون الإلهية ، بقدر ما جعل العقل (ال) لفهم الوحي المنزل (١) .

وكان لانفصال الأشعري ودعوته إلى مذهبه المعتدل الجديد أثره العميق في اضمحلال مذهب الاعتزال ، ثم انهياره بعد ذلك ، حين تضافرت العوامل السياسية مع التفكك الذي طرأ عليه ، والهجوم المستمر من قبل الفرق الأخرى ... فأذنت شمس المعتزلة بالمغيب .

ولم يلبث مذهب الأشعري - وإن كان قد عورض بشدة من قبل الحنابلة أن ذاع وانتشر ، ، وأحيا مذهب أهل السنة من جديد ومكن له في الأرض وأصبح هو المدافع عن العقائد السنية ، وإن لم يتخلص تماماً من تأثير المعتزلة .

(١) تاريخ الفلسفة في الإسلام ، ص ١٨٨

بعض مواقف المفردة العقلية

بعض مواقف المدرسة العقلية

ان النزعة العقلية في تفكير المدرسة روح تسري في جميع ما يكتبه شيوخهم، وهي سمة ظاهرة تغلب على آرائهم الدينية والدنيوية . ورغم انك لن تجد ابواباً او كتباً تتحدث عن هذا الموضوع وحده وتشرحه وتبينه مذهباً شاملاً متكاملاً يسرون عليه ويفتجعون نهجه ، الا انك عاثر حتماً على هذا المذهب العقلي في ثنايا شرحهم للمشكلات الكلامية المختلفة ، وتدليلهم على سلامة ما ذهبوا اليه . وانت مصطدم به أثناء قراءتك للمسائل الكبرى التي شغلت الازهار وشع من خلالها نور العقل المعتزلي الوهاج .

فإذا قدموا أدلة وبراهين فانهم يقدمون أدلة عقلية صرفة في مسائل دقيقة من مثل اثبات الله موجوداً ، واثبات حدوث الاشياء والافعال ، وانه المحدث وان الاعراض غير قديمة . ونلاحظ ان هذه الادلة العقلية كانت سهلة بسيطة اول الامر ثم تعقدت وتشعبت حتى بات من الصعب على غير المتخصص فهمها الا بعد معاناة ومعرفة بالاصطلاحات والمفاهيم اللغوية الفلسفية الخاصة^(١) فإذا ارادوا اثبات الله موجوداً مثلاً قالوا :

(١) راجع الجزء الثاني من : المجموع من المحيط بالتكليف . لابن متويه .

« الوجود صفة معقولة ، ولا يحد الوجود بلفظ اوضح منه .
والعلم بهذه الصفة عن طريق الجملة ضروري ، وانما يحتاج للاستدلال للمعرفة
بها عن طريق التفصيل ^(١) .

ثم يبني بمد ذلك على هذا المنطق - لي التسليم بمعرفة الله ضرورة . فلو
قلنا مثلاً لانسان : أنت موجود ، وانكر وجوده لكان مخبولاً فلا يناقش
فلو اعترف بوجوده وطلبنا تحديده بغير انه (موجود) لما استطعنا .

فالمعتزلة اذن بديهيات وأوليات لا يمكن الجدل فيها لانها من ضروريات
ادراك العقول .

ولما كانت بدايات الديانات هي في اثبات الله موجوداً ، كانت المعتزلة
سباقين الى إثبات هذا الوجود عقلاً ، للتدليل على قوة العقل من ناحية ،
وللبرهنة على غير المسلمين أو المؤمنين من ناحية أخرى ، ولأن القرآن نفسه
كان يفعل هذا بلفت الأنظار الى آيات الله في الكون .

والمتتبع لأدلثهم يرى فيها من الوضوح والقوة ما يدعو الى الإعجاب .
فعندما يقول أحدهم : ان العلم بصفة الشيء فرع عن العلم بذاته ^(٢) ، مثلاً
نجد أن هذا شيء بديهي ، فإننا إذا أثبتنا القدرة لله سبحانه عرفنا أنه موجود
إذ لا قادر غير موجود ، وهذا تفسير عقلي محض وتدليل سليم .

أو يقولون : إعلم أنت إقامة الدليل على الشيء فرع على كونه في نفسه
معقولاً . فأما ما لا يعقل فأيراد الدلالة عليه لا وجه له ^(٣) .

وعندما يقولون : « إن النظر أول الواجبات » ^(٤) فسانهم يستدلون على

(١) كأننا العلم بالله خاصية عقلية .

(٢) ص ٢٦ من : المجموع من المحيط بالتكليف .

(٣) نفس المصدر ص ١٨ .

(٤) نفس المصدر ص ١٠ .

هذه النظرية بأن الدافع الأول للنظر هو الخوف من تركه ، وقد ثبت في العقل وجوب دفع الضرر حتى المحتمل منه .

وإذا تحدثوا عن قبح الظلم قالوا : إنك تعلم - بعقلك - قبح الظلم ، فإذا عرفت في شيء بعينه أنه ظلم كفاك هذا في علمك بقبحه (١) .

أي أنهم يحيلونك الى عقلك لتستعمله وتدرك به صفة القبح الكامنة ، الثابتة ، في الظلم ، ببديهية بسيطة واضحة .

وفي أواخر أيام ازدهار المعتزلة ظهرت النزعة العقلية كأوضح ما تكون ، وكانت مباحثهم في المسائل الطبيعية ذات الصبغة الفلسفية ، كالجزء الذي لا يتجزأ أو الجواهر ، والأعراض ، والأجسام ، والحركات ، والسكنات ، وطبائع الأشياء ، وغيرها ، نتيجة حتمية لاتباعهم العقلية .

وجاء الجبائي يقول - الى جانب آرائه العقلية الأخرى - إن العقل يتدخل حتى في إطلاقنا صفات الله واسمائه عليه . فنحن نسميه عادلاً ، أو خيراً ، أو صادقاً ، إذا ما رأى العقل ذلك ، لا على سبيل التلقيب والمدح بل على أنها صفات وأسماء لعلم واحد .

ثم ثبت معنى جديد للبلوغ - الموجب للتكليف . فهو عنده ليس الاحتلام أو السن ، وإنما هو « تكامل العقل » ، والعقل هو العلم ، فكانت البلوغ - تكامل العلم الذي ينقسم الى : علم الاضطرار ، والمشاهدة الحسية ، والنظر أو التفكير .

وليس معنى هذا أنه لا بد للمكلف من أن يكون كامل العلم (أو العقل) لكن لا بد له من نوع من العلم ليكون مكلفاً ، وهو الاضطرار الى معرفة الحسن والقبح (٢) .

(١) نفس المصدر ص ١٣ .

(٢) مقالات الاسلاميين للأشعري ج ٢ ص ١٥٥ .

لكن المعتزلة - وإن غالوا في تقدير العقل - لا يخرجون عن القول بأنه من أعظم نعم الله علينا (١) .

فالعقل إذن نعمة من الله تعالى وليس نقمة . فهو الوسيلة الى معرفة الخالق وشكره .

ولقد سبق المعتزلة الفيلسوف الفرنسي (رينه ديكارت) R. DESCARTES بـ زمن طويل في القول بأن العقل « هو أعدل الأشياء قسمة بين الناس في العالم » فقد كانوا يمتقدون أن كل فرد من بني البشر له نصيب مساو لغيره من العقل - ما عدا المجانين وأضرابهم ، فهؤلاء خلقوا للسخرية والعبرة والموعظة .

وإن كان أحد أمين يقرر أن عدم إدراك المعتزلة للتفاوت بين العقول جعلهم يغفلون في فرض آرائهم وعد من لا يفهم كالأنعام (٢) .

ولا ريب أن هذا موقف خاطيء لأن التفاوت في العقول واضح للعيان وبه يتفاوت الناس في الفهم والإدراك .

مدى تطبيق المعتزلة لآرائهم :

قلنا ان المعتزلة نادوا بالعقل ، وبالاختيار الانساني ، وبالحرية الفردية ، وبآراء تدعو الى أن يختار كل انسان ما يحلو له فعله ، وهو يعلم أنه محاسب بعد ذلك على ما يفعل ، وكذا ما يطيب له اعتقاده .. فهل طبق المعتزلة هذه المعتقدات ؟ .. هم فعلوا ، ولم يفعلوا ..

فعلوا من حيث ايمانهم بالعقل كوسيلة أولى للمعرفة ، والتمسك به رغم ما جر عليهم ذلك من بلاء ، ومن حيث الايمان بالنقد ، وبالنقد الذاتي فيما بينهم . ومن حيث الاهتمام بالمسائل العقلية في مجال العلم الطبيعي والاحتفال بالتجربة

(١) المجموع من المحيط بالتكليف ص ١٤ ج ١ .

(٢) ضحى الاملام ج ٣ ص ١٩٢ ط خامسة .

الحسية الواقعية ، ومن حيث التحرر من كثير من قيود التزمّت ومن الخرافات والخرعبلات والأساطير . لكنهم لم يفعلوا بالنسبة لخصومهم الذين عارضوهم في الرأي .. وتكفي محنة « خلق القرآن » لتبين مدى طغيان المعتزلة إبان سيطرتهم على الحكم وممالأة الحكام لهم ، ومدى تضيقهم على معارضيهم حتى بلغ الأمر حد الجلد والقتل ^(١) ، وتنكرهم لمبدأ الحرية الفردية ، ومحاولتهم إرغام الناس جميعاً بقوة الحديد والنار ^(٢) ، بعد أن فشلت قوة الاقتناع ، على اعتناق مذهبهم واعتقاد آرائهم . وقد لاقى أحمد بن حنبل وأتباعه من الأذى والاضطهاد ما ينبغي ان يربأ دعاة الحرية الانسانية عنه ، وما كان سبباً في نفور الناس من مذهبهم .

لقد فشل المعتزلة في تطبيق معتقدهم - وإن كان أحمد أمين يتلمس لهم المآذير - إذ أنه لا يمكن لأي قوة في الأرض أن تدخل في رؤوس الناس فكرة يرفضونها ، مهما سمحت هذه الفكرة ، ومهما سلط السيف على الرؤوس .

(١) من الممكن الدفاع عن غلظة المعتزلة في معاملة خصومهم ، بأنهم ما فعلوا هذا إلا لثقتهم التامة بصحة معتقدهم ، كما أنهم - في جدالهم لهؤلاء الخصوم - كانوا لا يلقون استجابة كبيرة للجدل والتسليم والاقتناع عند المعجز عن رد الحجة والبرهان . فقد كان هؤلاء الخصوم - وفي مقدمتهم أحمد بن حنبل - يلوذون بالصوت ويرفضون المسيرة في النقاش ، ويتمسكون برأي واحد لا يتزحزون عنه . كما حدث في جدل أحمد بن أبي دؤاد له في مسألة خلق القرآن . إذ كان موقف ابن حنبل سليماً تماماً ولا يدل على رغبة في الفهم والاقتناع . كما أنه من الممكن الفصل بين اعتناق المعتزلة لمبدأ الحرية والعقل ، وبين شدتهم في العمل على تسويد مذهبهم . وهذا يحدث كثيراً من دعاة جميع الأفكار والمعتقدات .

(٢) أحمد أمين ٣ ضمن الاسلام ص ٧٣ ط سابعة .

نظرة إجمالية

نظرة إجمالية

يخيل إلي الآن أننا قد أحطنا بصورة - ولو بسيطة - عن طبيعة ومميزات الفكر المعتملي ، وأدركنا الطابع العقلي لهذا الفكر المنحدر .

ولا ينبغي هنا - وقد كدنا أن نشارف نهاية هذا البحث - أن ننهيه دون التنويه ببعض الجوانب التي فاقتنا الإشارة إليها من جوانب تفكير المعتملة ونظرياتهم وآرائهم .

وأول هذه المسائل هو ما كان يتجلى بوضوح - خاصة لدى متأخري شيوخيهم - من أنهم كانوا لا يقبلون مسلمة عامة دون مناقشتها ، فإذا ما سلموا بها رفضوا أن يسموها إلا باسمها الدال على أنها قابلة للنظر والنقد وأنها ليست شيئاً أزلياً خالداً ، بل هي مجرد « دعاوى » تتعرض للنفي كما تتعرض للإثبات . فان قيل لهم : لم سميت هذه الوجوه « دعاوي » ؟ ... قالوا : لأن الدعوى كل خبر لا يعلم صحته وفساده إلا بدليل ، بل نعلم ذلك ضرورة وهذا حال كل واحدة من هذه الدعوى ، فيجب أن تسمى دعاوي لأنه لا يعلم صحتها الا بدليل ، ولأن في كل واحدة من هذه الدعوى خلافاً . (١)

هم يسمون مقدمات أدلتهم « دعاوي » زيادة في الحيططة والحذر ، إذ

(١) تعليق على شرح الأصول الخمسة للفرزادي ص ٦٥ .

علموا انه من الممكن دحض حجة يعتمدون عليها بحجة أقوى منها ، فسموها (دعوى) قابلة للتمحيص وتقليب الرأي فيها . ثم هم يحاولون اثباتها منطقياً عن طريق افتراض معارضات حتى في ادق الامور وأقربها إلى التسليم والافتناع .

لنقرأ مثلاً هذا النص من (شرح الاصول) بعد أن يبين ان الاستدلال على وجود الله بالاجسام أولى من الاستدلال بالاعراض ، ويشرح لماذا كان هذا التفضيل ، فيقول : « ... وهذه الدلالة مبنية على اربع دعاوى . أحدها ان في الجسم معاني غيره ، الثانية انه يعلم محدثه ، الثالثة ان الجسم لم يخل منها ، الرابعة أن الجسم إذا لم يخل منها ^(١) وجب ان يكون محدثاً مثلها .

ثم يرتب هذه الدعاوى الاربع ؛ الاولى متقدمة ، والرابعة متأخرة . واللذان في الوسط لا ترتيب لهما لأنه لا يترتب العلم بأحدهما على العلم بالآخرى . أما الاولى فتكون متقدمة لتعرف ان هاهنا معاني محدثة لا يخلو الجسم منها فيكون محدثاً . وأما الرابعة فتكون مؤخرة لأنها كلام في أن الجسم إذا لم يخل من هذه المعاني المحدثة وجب ان يكون محدثاً مثلها .

« فما لم نعرف ان هاهنا معاني ، وأنها محدثة ، وان الجسم لم يخل منها لا يمكننا القول بان الجسم إذا لم يخل منها وجب ان يكون محدثاً مثلها . »

تسلسل منطقي متين ، يقرّبه المؤلف بأن يشبهه بكأنا إذا أردنا أن نجتمع بين أصل وفرع بعلة من العلل في حكم من الاحكام ، فلا بد من أن يكون الاصل والفرع والعلة والحكم كله معلوماً لنا ، ليمكننا رد الاصل إلى الفرع وذلك الحكم إلى تلك العلة ..

أما المسألة الثانية التي أود الإشارة إليها في مجال تفكير المعتزلة العقلي

(١) من الحوادث التي هي الاجتماع والافتراق والحركة والسكون ، وما لم يخل من الحوادث يجب ان يكون محدثاً مثلها .

فهي قضية الانصراف إلى تأمل الذات للوصول إلى المعرفة اليقينية، ثم النظر في ما حول الإنسان من مظاهر تؤدي إلى هذه المعرفة عن طريق النظر والاستدلال. نقرأ مثلاً : « ثم سأل رحمه الله (القاضي عبد الجبار) نفسه في بداية الفعل فقال : ما الطريق الذي يكون النظر فيه مؤدياً إلى معرفة الله تعالى ؟ وأجاب عنه بأن قال : نفسي وما أشاهده من الأجسام (١) ثم سأل رحمه الله نفسه عن هذا فقال : ومن أين يدل نفسك وأجسام العالم على الله تعالى ؟ وأجاب عنه بأن قال : لأن في حال الكمال لا أقدر على أن اخلق مثلي ولا مثل بعضي ، فعلت أن لي خالقاً وحياً وميتاً هو الله تعالى ، وتقصيل ذلك أن الواحد منا يختص بمعاني هي البيئة والتأليف والتركيب واللحمية والدمية والرطوبة واليبوسة ، وهذه المعاني كلها محدثة وإنها محتاجة إلى محدث ، فإن محدثها لا يجوز أن يكون قادراً بقدرة ، بل يجب أن يكون فاعلاً غائلاً لنا وهو الله تعالى (٢) . ووجه آخر من الاستدلال بأنفسنا وهو ما قد ثبت أن الواحد منا يتنقل في أحوال لا يجوز أن يتنقل فيها إلا بفاعل ومدير وهو الله تعالى . »

أما المسألة الثالثة فهي ما يلاحظه الدارس للفكر المعتزلي من اهتمامهم بتحديد المفاهيم ، ونقد اللغة ، نقداً يزيل الالتباس عنها ، أو ما يحيط بها من غموض قد يعرقل الوصول إلى الحقيقة المنشودة .

(١) بالرجوع إلى القرآن الكريم نجد أنه يدعو إلى النظر في النفس لاستخلاص المعرفة (ومن انفسكم أفلا تبصرون) كما يدعو إلى التدبر في المشاهدات الحسية المحيطة بنا. ومن العجيب حقاً أن جل الفلاسفة والمفكرين . وأصحاب الرسالات ، لا ينفكون يدعون الإنسان إلى النظر في نفسه ليحصل له اليقين الذي يبعث عنه ، ويثبت ما هو في ريب منه . ومنذ اسدى سقراط نصيحته القالية (اعرف نفسك) حتى أثبت ديكارت وجود الله عن طريق الكوجيتو والنظر في النفس ، ليتبين أنه (يفكر فهو موجود) .. نجد أننا في حاجة مستمرة إلى التفكير والتأمل في نفوسنا وذواتنا .

(٢) تحسن الإشارة هنا إلى حديث القاضي عبد الجبار عن فكرة الكمال مرات كثيرة كدليل على حدوث الإنسان ، لافتقاره إليه ، ص ٦٥ من نفس المصدر .

وقد رأينا اهتمامهم بالتعريفات والحدود ، حتى لا تبقى هناك فرصة
للسفسط ينتهزها في جداله ليبطل حجة مجادله .

ورأينا في حديث (الدعاوى) تركيزهم على أداء الكلمة أو الاصطلاح
للمعنى المقصود منه ، دون السماح له بأن يخرج الى معان ومفاهيم قد لا
تخدم قضية الحق .

وهذا شيء طبيعي في جماعة تأثرت بالمنطق اليوناني ودرسته ، واتخذت من
الجدل وسيلة لنشر آرائها ودعوتها ، وما أقرب الشبه هنا بين موقف المعتزلة
من المسفسطين الاسلاميين ، وموقف سقراط من سفسطائي أثينا ، وبمحت هذا
الفيلسوف عن المعاني الكلية ، واحتفاله بالحدود والتعريفات .

حتى كلمة (العقل) - وهي رائدتهم في مسيرتهم - ابوا إلا ان يعطوها
حقاً مفهوماً محدداً، فيعمل ابو علي الجبائي تسمية - (العقل) - الذي هو عنده
العلم - عقلاً ، بأن الانسان يمنع به نفسه عما لا يمنع المجنون نفسه عنه ، وبأن
ذلك مأخوذ عن (عقل البعير) الذي يمنعه .

وهنا نلتقي بتداخل طريف بين المفاهيم اللغوية والمعاني الفلسفية - ومن
قال بأن اللغة ليست تعبيراً عن خلجات النفس ونظرات الفكر ؟ ..

الأمر الرابع الذي تظهر فيه قوة المعتزلة العقلية ، واعتدادهم بهذا العقل ،
هو عنايتهم باثبات الآراء عن طريق ابطال نقائضها - حتى وان لم يقل أحد
بهذه النقائض - عن طريق اقتراح من يقول بها :

ففي مسألة اثبات الله واحداً مثلاً يقول القاضي عبد الجبار : واول ما
في ذلك يجب أن نعم معنى قولنا واحد ^(١) .

جملة القول في ذلك ؛ ان قولنا (واحد) تستعمل على معنيين ؛ أحدهما
أنه لا يتجزأ ولا يتبعض ، والثاني انه على صفات مخصوصة لا يشاركه فيها
غيره . واذا قلنا ان الله تعالى واحد فليس المراد به انه لا يتجزأ ولا

(١) لاحظ التدقيق المميز في تحليل المفاهيم - كمادتهم .

يتبعض ، وذلك لأننا نؤكد بهذا المدح ، ولا مدح في انه لا يتجزأ ولا يتبعض ،
فان الجزء المنفرد لا يتجزأ ولا يتبعض ولا مدح له في ذلك . بل اذا قلنا ان
الله تعالى واحد انه مختص بصفات لا يشاركه فيها غيره نفيًا وإثباتًا .

واعلم أن من خالف في هذا الباب مخالفة لا يخلو أمره من أن يقول ان
مع الله تعالى قديماً ثانياً يشاركه فيما يستحقه من الصفات أجمع نفيًا وإثباتًا ...
وإما ان يقول ان مع الله تعالى قديماً ثانياً يشاركه في بعض صفاته .

أما الأول فلا قائل به ، ولكننا اذا ادعينا أمراً من الامور قورناه
بدلالته .. الخ . (١)

الى هذا الحد وصلت قوة عقل اهل الاعتزال .. الى حد انهم يدعون
الامر ، ولا قائل به يحاجونه ويحادلهم فيه - ويفرضون الفروض ، ثم يعملون
على دحضها وابطالها .

وبهذا كانت حجبتهم أقوى ، ودليلهم أصلب ، وبرهانهم أمتن عند الجدل
والكلام .

(١) نفس المصدر السابق .

تأثير نزعة المقولة العقلية

تأثير نزعة المعتزلة العقلية

اقتضح لنا مما سبق - عند حديثنا عن انقلاب الاشعري على المعتزلة - ان أبا الحسن اتخذ موقفاً وسطاً بين أهل السنة والمعتزلة ، موقفاً حاول فيه التوفيق والتقريب بين المذهبين المتنافرين في كثير من القضايا التي عرضنا لها . لكننا لم نشر الى تأثير المعتزلة في اتخاذ الاشعري هذه الوجة في مذهبه الجديد . وقد آن لنا ان نوضح هذا التأثير في الاشاعة خاصة ، وأهل السنة بصورة عامة ، حتى نمطي صورة جلية بقدر الامكان عن مدى أثر اهل الاعتزال .

قلنا ان الاشعري عاش أربعين عاماً طويلة في حبر المعتزلة ، متغذياً بأفكارهم ، متشرباً لأرائهم . ثم بدا له ان يخرج غليهم ويقف ضدهم مهاجماً ومؤازراً أهل السنة من السلفيين .

وبصرف النظر عن مدى صحة الرأي القائل بأن الاشعري ما فعل هذا الا بعد ما رأى من مقدمات انهيار المعتزلة ، ووجوب قيام رجل يحمي (حصن العقل) من غلبة الفكرية الفكية المنتصرة باتخاذ سبيل وسط ، فاذ من

المسلم به - سواء بالنظر الى طريقة تفكير الاشعري او المدة التي قضاهما في
حمي الاعتزال - انه لم يتخلص أبداً من تأثير نهج تفكير المعتزلة العقلي ،
واحتفاله بالعقل هذا الاحتفال الكبير .

ان اربعين عاماً من التشيع بالمذهب المعتزلي ، والاحتكاك برعائنه ، لا
يمكن التخلص منها ومن آثارها دفعة واحدة .. وهذا ما كان من امر أبي
الحسن ، حتى ان اقباع احمد بن حنبل ابوا ان يقبلوه في عودته اليهم ، وهاجموه
أقصى هجوم هو وانصاره والقائلين بذهبه ، ولم ينل الاشعري الخطوة عند
الحديثين وأهل السنة عامة الا بعد مرور مدة طويلة تأكدوا فيها من صدق
دعوته . ذلك لأن الأشعري كما يقول ابن الجوزي : ظل دوماً معتزلياً ، وهذا
ما دفع الحنابلة - بتأثير الثأر القديم بينهم وبين المعتزلة - الى رفضه والمهجوم
عليه .

ويبدو هذا التأثير المعتزلي بدياً في الاشاعرة حين نلقى نظرة على مقالاتهم
في المسائل الكبرى التي كانت مثار جدل وكلام ، من مثل مسألة الصفات ،
وكلام الله ، والتأويل ، والفعل .. الخ .

ففي مسألة الصفات مثلاً رفض « الغزالي » أن يكفر المعتزلة لنفيهم
الصفات ^(١) ، وكان بعض اهل السنة يكفرونهم به ، وجاء « الباقلاني » ليقول
مثل « أبي هاشم الجبائي » بالاحوال ، كما ردوا الصفات إلى سبغ فقط ،
وقالوا بصفات (أو أسماء) الافعال غير الأزلية ، كالرازق والخالق والمز
والمدل ^(٢) .

وفي مسألة كلام الله قال الاشاعرة إن الحروف والاصوات مخلوقة وهم بهذا
اقتربوا من قول المعتزلة قليلاً في مسألة القرآن .
كما اهتم الاشاعرة بالتأويل وسمحوا بتأويل الآيات التي تتحدث عن اعضاء

(١) فيصل للفرقة بين الاسلام والزندقة ص ١٣٢ .

(٢) انظر : الاقتصاد في الاعتقاد ص ١٢٩ .

له كالوجه واليد بأنها الله نفسه أو قدرته، إلخ... ونفوا الجهة عن الله تعالى،
ونادوا بالتنزيه مما كان ينادي به المعتزلة .

ثم كان أن سمحوا للإنسان بشيء من القدرة على الفعل بنظريتهم في الكسب
فقالوا إن للإنسان الإرادة ، والله الاتقان وإيجاد القدرة . وقد كان أهل السنة
يرفضون أية (مشاركة) للإنسان في الأفعال ، بل الله عندهم هو الخالق
والفاعل في جميع الحالات . إلى غير ذلك من القضايا التي يطول الحديث فيها
لو استقصيناها جميعاً ^(١) .

وعلى أي حال فقد ظهرت (بصيات) تفكير المعتزلة واضحة في تفكير
الاشاعرة ، حتى « تكلم الناس فيهم بما هو معروف في كتب أهل العلم
ونسبوه إلى البدعة وبقايا الاعتزال » ^(٢) .

لقد كان طبيعياً - وقد اعد الأشعري عدقه لحرب المعتزلة - أن يتسلح
بسلاحهم ، ويتخذ من الأدلة العقلية وسيلة لهدم قلاعهم . وقد كان أهل السنة
من قبل الأشعري لا يعتمدون إلا على النقل في أمور الاعتقاد، على حين أخذت
الفلسفة توجه أهل الفرق إلى الاعتماد على العقل . فلما أخذ الأشعري في مناظرة
المتدعة بالعقل حفاظاً على أهل السنة جاء انصار مذهبه من بعده يثبتون
عقائدهم بالعقل تدعيماً لها ومنعاً لاثارة الشبه حولها ؟ ^(٣)

هؤلاء الانصار أنفسهم والتلاميذ - كابن مجاهد - هم الذين أخذ عنهم
القاضي أبو بكر الباقلاني فتصدر للإمامة في طريقتهم وهذبها ووضع المقدمات
العقلية التي تتوقف عليها الأدلة والأنظار ، وذلك مثل إثبات الجوهر الفرد،
والخلأ ، وأن المرض لا يقوم بالمرض ، وأنه لا ينفى زمانين ... إلخ . ^(٤)

(١) تاريخ الفلسفة في الإسلام لدي بور ص ١١٦ وما بعدها .

(٢) مقدمة ابن تيمية كتاب (مقالات الإسلاميين) لمحي الدين عبد الحميد . ص ٢٥

(٣) الشيخ مصطفى عبد الرازق - تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية . ص ٢٩٣ .

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٤٦٥ .

ومثل الباقلاني فعمل ابن فورك والبغدادي والطبري والبيهقي والقشيري والجويني والغزالي والشهرستاني وغيرهم ، من تلاميذ الأشعري السنين والذين مكثوا لمذهب في النفوس والأذهان .

هؤلاء الانصار هم الذين ألفوا الكتب والرسائل في الدعوة للمذهب الجديد وتثبيته ، متخذين من سلاح المعتزلة - الذي عرفوه عن طريق الأشعري - والمتمثل في استعمال العقل والنظر ، وسيلة لبلوغ هدفهم المنشود .

وكما حدث أن أخذ المعتزلة - في بدايتهم - عن خصومهم من أهل الفلسفة والديانات طريقتهم في الجدل والنقاش ، كذلك جرى بالنسبة لخصوم المعتزلة من الحنابلة والأشاعرة وأهل السنة عموماً . فانبرى الحارث المحاسبي (٢٤٣+) ليضع كتاباً في الرد على المعتزلة بطريقتهم ، وكان أبو حنيفة أول من اتخذ طريق المعتزلة في الدفاع عن الدين وخاض في علم الكلام - الذي كان محرماً الخوض فيه - ووضع كتابه (الفقه الاكبر) تمييزاً له عن الفقه العادي .

ويكفي أن المعتزلة أثاروا من المسائل ما كلت « سبباً لانتهاض أهل السنة بالأدلة العقلية على أهل العقائد ، دفماً في صدور هذه البدع » (١) « وهذا اجتهد بقي ثمره حتى الآن ، إذ استمد أهل السنة منه في كل باب عند الخوض في مناسبات هذه المسائل ولولم تكن المعتزلة مهدت الطريق لما كان لأهل السنة تقدم في هذا الفن مثل تقدمهم » (٢) .

محمد يوسف النمسوي

(١) نفس المصدر ص ٤٦٤

(٢) نيرج : في مقدمته لكتاب (الانتصار) ص ٦

نظرة أخيرة

لقد احتل اهل العدل والتوحيد في تاريخ الفكر الاسلامي مكانة سامقة .
تضافرت عوامل الرجمة ، والحكم الجاهل ، والتزمت العاتي ، وغوغائية
العامة على انكارها والتقليل من شأنها .

لكن اثر هذه المدرسة العظيمة كان واضحاً - بطريق مباشر او غير مباشر -
في المدارس التي قامت على أنقاضها كالأشعرية والزيدية الشيعية . وظهر هذا
الاثر في نمط الموضوعات التي تبث ، وفي اسلوب معالجتها ، بل وفي كثير
من الحلول التي قدمت لها .

وكان اهل الاعتزال يمثلون - بحق - التيار التحرري في الفكر الاسلامي
وهم رغم أخطائهم القليلة - كانوا يهدفون الى خير الاسلام ورفع مكانته
والانتصار له .

وكانت شخصيات رجال الاعتزال - من امثال واصل والعلاف والنظام
والجاحظ - علامات بارزة في تاريخ الفكر الاسلامي نعتز بها ونفخر وكانت
الزعة العقلية المميزة لتفكيرهم مصدر خير كثير للاسلام والمسلمين . وإنه لحق
أن يقال انه لم يكن من مصلحة الاسلام موت المعتزلة ، فقد كانوا نمطاً من
أهل الفكر الذين يكدون عقولهم في سبيل الوصول الى الحقيقة ، ولا يسلمون
أنفسهم ريشة في مهب ريح القدر يلعب بها كما يشاء بل يثبتون لانفسهم ،
ولغيرهم ، ما داموا قد 'خلقوا' ، وجوداً يطلبونه متكامل ومقبولاً .

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

- ١ - «إبراهيم بن سبتار النظام ، وآراؤه الكلامية والفلسفية» :
للدكتور محمد عبد الهادي أبو ريبة - لجنة التأليف والترجمة والنشر .
القاهرة ١٩٤٦ .
- ٢ - «الارشاد» : لإمام الحرمين أبي المعالي الجويني - مكتبة الخانجي .
القاهرة ١٩٥٠ .
- ٣ - «الاقتصاد في الاعتقاد» : لأبي حامد الغزالي - مطبعة النور ،
أنقرة ١٩٦٢ .
- ٤ - «الانتصار» : لأبي الحسين الخياط - تحقيق نيرج . دار الكتب ،
القاهرة ١٩٢٥ .
- ٥ - «الإنصاف» : لأبي بكر الباقلاني - تحقيق زاهد الكوثري . مكتبة
الخانجي ، القاهرة ١٩٦٣ .
- ٦ - «تاريخ الفرق الإسلامية ونشأة علم الكلام عند المسلمين» :
لعلي مصطفى الغرابي - مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٤٨ .
- ٧ - «تاريخ الفلسفة في الإسلام» : لدى بور ، ترجمة أبو ريبة -
طبعة رابعة - القاهرة ١٩٥٧ .
- ٨ - «التبصير في الدين» : لأبي مظفر الاسفرايني - تحقيق زاهد الكوثري .
الخانجي ١٩٥٥ .
- ٩ - «تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية» : للشيخ مصطفى عبد الرازق -
لجنة التأليف ١٩٥٩ .

- ١٠- « التمهيد » : للقاضي أبي بكر الباقلاني - تحقيق الأب رتشارد مكارثي اليسوعي . بيروت ١٩٥٧ .
- ١١- « تعليق على شرح الأصول الخمسة » : لإسماعيل بن علي القرزاذي - مخطوط / دار الكتب المصرية رقم د / ٢٧٨٠٠ .
- ١٢- « الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي » : للدكتور محمد البهي .
- ١٣- « ضحى الإسلام » : للدكتور أحمد أمين .
- ١٤- « ظهر الإسلام » : للدكتور أحمد أمين .
- ١٥- « فجر الإسلام » : للدكتور أحمد أمين .
- ١٦- « الفرق بين الفرق » : لعبد القاهر البغدادي - تحقيق الشيخ محمد عبد الحميد . مطبعة صبيح - القاهرة .
- ١٧- « المجموع من المحيط بالتكليف » : للقاضي عبد الجبار بن أحمد - جمع ابن منويه - مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٥٧/عقائد - تيمورية . ومصور مخطوط رقم ب / ٢٩٣١٤ .
- ١٨- « محاضرات في علم الكلام » : ألّفها الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة على طلبة قسم الفلسفة بكلية الآداب - بنغازي ١٩٥٩ - ١٩٦٠ .
- ١٩- « مقالات الإسلاميين » : لأبي الحسن الأشعري - تحقيق الشيخ محمد عبد الحميد . مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .
- ٢٠- « المقدمة » : لعبد الرحمن بن خلدون - طبعة مصطفى محمد (المطبعة التجارية) بالقاهرة .
- ٢١- « الملل والنحل » : لمحمد بن عبد الكريم الشهرستاني - تخريج محمد بدران . الطبعة الأولى ، مطبعة الأزهر .

- ٢٢- «المواقف» : لعبد الرحمن الإيجي - طبعة قديمة بدار الطباعة بالقاهرة ، بدون تاريخ .
- ٢٣- «الموسوعة الفلسفية المختصرة» : الترجمة العربية لـ Concise Ency. of Western Philosophy and Philosophers - القاهرة ١٩٦٣ .
- ٢٤- «المعتزلة» : لزهدى حسن جاد الله - مطبعة مصر ، القاهرة ١٩٤٧ .
- ٢٥- «نشأة التفكير الفلسفي في الإسلام» : للدكتور علي سامى النشار - الجزء الأول ، طبعة ١٩٦٢ .
- ٢٦- «نهاية الإقدام في علم الكلام» : لمحمد بن عبد الكريم الشهرستاني - تحرير وتصحيح ألفريد غيوم .
- ٢٧- مقالة «المعتزلة» في Mu' tazila في Encyclopoedia of Islam بقلم نيرج .
- ٢٨- A History of English Philosophy تأليف و. ر. سورلى - كبردج ١٩٥١ .

محتويات الكتاب

صفحة	
٧	مقدمة
٩	تمهيد
١٣	بدايات التفكير العقلي في الاسلام
٢١	البدايات الأولى للمعتزلة
٢٩	المؤثرات في اتجاهات المعتزلة العقلية
٤٧	غاية المعتزلة من الاتجاه العقلي في علم الكلام
٥٣	مشكلات - عقلية - دينية
٧٥	الديانة العقلية
٩٥	إنقلاب الأشعري
١٠١	بعض مواقف المعتزلة العقلية
١٠٩	نظرة إجمالية
١١٧	تأثير نزعة المعتزلة العقلية
١٢٣	نظرة أخيرة
١٢٧	المصادر والمراجع

للمؤلف

دراسات :

- الجبّانيان .. أبو علي وأبو هاشم :
- دراسة في فكر أهل الاعتزال وشيخين من كبار رؤسائهم .
- أحمد زروق والزروقية :
- بحث في حياة وفكر علم من أعلام التصوف الإسلامي .
- قراءات ليبية :
- بحوث مركزة في تاريخ ليبيا القديم منذ فجر التاريخ حتى الفتح الإسلامي .
- الحركة والسكون :
- مجموعة مقالات ودراسات متنوعة .

ترجمات :

- نصوص ليبية :
- ترجمة لنصوص يونانية ولاتينية عن ليبيا القديمة مع تعليقات وافية .
- دفاع صبراته :
- دفاع الفيلسوف الأديب (أبو ليوس) في محاكمته الشهيرة مع مقدمة وشروح ضافية .
- نظرة الغرب إلى الإسلام في القرون الوسطى :
- مؤلف و. ر. سدرن / بالاشتراك مع الدكتور صلاح الدين حسن .
- حسناء قورينا :
- مسرحية « رودنس » للكاتب اللاتيني (بلاوتوس) .
- حسان :
- مسرحية الكاتب الإنجليزي (جيمس إلروي فلكر) .

تحقيق :

- الحاجة :
- مستخلصات من ثلاث رحلات في البلاد الليبية .



كانت المعتزلة إحدى أشهر الفرق التي لعبت دوراً بارزاً في توجيه دفة الفكر الإسلامي، وقد امت فؤادها رافعاً لما ينبغي أن يكون عليه المفكر من إقدام على المسائل الخطيرة وجسارة في البحث والرأي والنقد واستخلاص النتائج القاطنة على مقدمات عقلية واضحة. هذا الجانب تأثيرهم السياسي والاجتماعي والأدبي، سواء عند ما كانوا مقربين من أولي الأمر أو بعد النكسة التي أصابهم بعد ذلك.

وإذا قلنا: المعتزلة، فإن أول ما يتبادر إلى ذهن السامع هم أولئك المفكرين الأفاضل الذين تحرروا من أسرار التقليد واطلقوا خلف شعلة العقل المشوهجة في بحثهم عن الحق أين كان، وهم أولئك الرجال العظماء الذين لولا ما حاق بهم من مصير مؤسف دفعت بهم إليه الأيدي الرعناء لكان للمسلمين مثاقب غير هذا الشأن ولكن للفكر الإسلامي واقع غير هذا الذي نراه اليوم.

لقد اشتهر أهل الاعتزال قبل كل شيء باحتضانهم للعقل واحتقانهم به، فكان التزاماً إذ أن يبرز هذا الجانب الرئيسي في تفكيرهم، وكان ضرورياً أن تسلط عليه الأضواء ويحلى للناس بقدر الامكان. ولذا كان هذا البحث محاولة متواضعة لإظهار ما في تفكير المعتزلة من نزعة عقلية وميل واضح إلى استعمال هذا السراج الإلهي الذي منحه الله للإنسان في موضعه الصحيح.

من المقدمات

